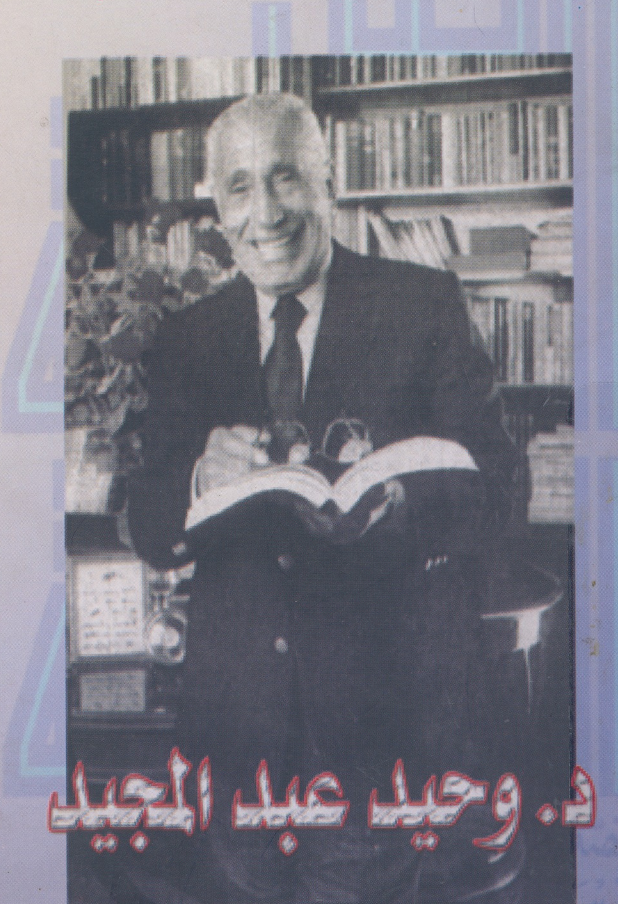
دار مصر المحروسة

# هيكل

## بين الجريدة والكتاب



د. وحيد عبد المجيد

# مدرسة هيكل بين الجريدة والكتاب

الكتاب : مدرسة هيكل بين الجريدة والكتاب
المؤلف : د. وحيد عبد المجيد
الناشر : دار مصر المحروسة
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠٠٤
المدير العام : خالد زغلول
مدير النشر والتوزيع : يحيى إسماعيل
المدير الفنى والتنفيذى : إيناس حسنى
المراجعة اللغوية : عبد المنعم فهمى
رقم الايداع بدار الكتب : ٢٠٠٣/٢٠٥٤٥


١٢ شارع قولة امتداد محمد محمود - عابدين - القاهرة
تليفون - فاكس : ٢٩٦٠٥٠٠

# مدرسة هيكل بين الجريدة والكتاب:

# التجربة الفريدة

د. وحيد عبد المجيد

# مقدمة



توقف الأستاذ محمد حسنين هيكل عن الكتابة عندما بلغ الثمانين فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ . سيسجل التاريخ هذا اليوم فى ذاكرته. وسيظل هناك جدل حول مدى سلامة هذا القرار أو خطئه، و الأسباب الحقيقية التى دفعته الى اتخاذه.

استخدم هيكل تعبير "الانصراف" للدلالة على قراره. ولذلك رأى أن يستأذن قراءه. كان هذا نبأ حزينا لكثير من محبى قلمه وكتابته سواء اتفقوا معه أو اختلفوا. فهو ظاهرة فريدة فى تاريخ الصحافة المصرية والعربية بوجه عام. وأحد أوجه تفردها هو هذا التوافق الواسع عليه، والذى ظهر بوضوح كرد فعل على انصرافه.

ولكنه لم ينصرف إلا بعد أن فعل أكثر مما فعله غيره. وسيظل أهم ما فعله هو تشييد مدرسة كبرى. ستبقى مدرسة هيكل مفتوحة لكل من يريد أن يتزود منها. ولذلك واجب علينا أن نعمل لتأصيلها بطريقة علمية موضوعية بعد أن انتهت ردود الفعل العاطفية على انصرافه. طغت العاطفة فى مناسبة انصرافه وطبعتها بطابع لا يليق به إذا استمر الحديث عنه بطريقتها. فلا يجوز أن يكون الاحتفاء بمن يعتبر

نموذجا للعمق فى الصحافة العربية دافعا الى تسطيح إنجازاته على النحو الذى رأيناه فى مناسبة تستدعى العواطف والمشاعر أكثر من العقل والفكر.

شعرت بكثير من الألم وأنا أقرأ بعض ما كتب عنه. أحد العناوين التى أثارت ألمى كان عنوانا يقول : (أحسنت يا أستاذ هيكل). جميل حقا أن يعبر الإنسان عن مشاعره فى لحظة كهذه. ولكن الأجمل منه أن يتجاوز هذه اللحظة سعيا الى تعاون بين كل من يمكنهم المساهمة فى تأصيل مدرسة هيكل عبر دراسات متعمقة تناقش فى سلسلة من الندوات والمؤتمرات وتصدر فى مجموعة كتب. وهذه مهمة أكثر من ضرورية لأن معظم أبناء الأجيال الجديدة لا يعرفون عنه أو يعرفون القليل.

وأظن أن هناك وفرة فى من يمكنهم أداء هذا الدور من بين تلاميذه ومحبيه فى مختلف الأجيال. ولكى لا تكون هذه دعوة فى الهواء بالطريقة الشائعة لدينا فى عالمنا العربى، رأيت أن أقرنها بمساهمة صغيرة فى هذا التأصيل نتناول جانبا خفيا الى حد كبير فى مدرسة هيكل، وهو طريقته الفريدة فى كتابة عدد من كتبه باللغتين العربية والإنجليزية، وليس الترجمة من إحداهما إلى الأخرى. وهذه تجربة فريدة حقا لم يسبقه غيره إليها، ولا لحق به أحد إليها حتى الآن.

إن باب تأليف الكتب هو أحد أهم أبواب مدرسة هيكل التى يعترف بها كثير ممن يختلفون معه بل بعض خصومه أيضا، وليس فقط تلاميذه. وكان

توقفه عن الكتابة مناسبة أظهرت هذه الحقيقة على امتداد بلاد العرب. ولذلك رأيت أن أبدأ هذا الكتاب بقراءة نقدية فى أهم ما كتبه كتاب عرب غير مصريين فى هذه المناسبة، قبل أن أشرع فى محاولة أولى لتأصيل تجربته فى الكتابة بلغتين لقارئين مختلفين من خلال المقارنة بين النسختين العربية والإنجليزية لكتابه المهم عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل.

د. وحيد عبد المجيد

نوفمبر ٢٠٠٢

# الفصل الأول

# قراءة فى رؤى عربية لمدرسة هيكل

أثار قرار الأستاذ محمد حسنين هيكل بالانصراف عن الكتابة لدى بلوغه الثمانين فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ ردود فعل لا سابقة لها، تماما مثلما يمثل هو ظاهرة غير مسبوقة.

لم تقتصر أصداء قراره على مصر. وكيف ذلك وهو أكثر الكتاب العرب شعبية فى بلاد أمتنا على امتدادها. وأخذت هذه الأصداء صورا عدة فى الإعلام العربى المرئى والمكتوب والمسموع. فمن برامج تلفزيونية متنوعة الى تغطيات وتحقيقات صحفية مختلفة الى مقالات تضمنت وجهات نظر متباينة، انشغل العقل العربى بانصراف الأستاذ الذى أثبت مجددا أنه الصحفى والكاتب الذى يعرفه القارىء العربى أكثر من غيره.

كان هيكل، ومازال، ظاهرة عربية وليست فقط مصرية. ومن هنا أهمية متابعة ومناقشة نظرة كتاب عرب إليه عندما كتبوا عنه فى مناسبة انصرافه عن الكتابة فى الفترة من منتصف سبتمبر الى منتصف أكتوبر ٢٠٠٣، مع التركيز على عدد من كبارهم لكل منهم إسهامه وتجربته الصحفية المتميزة ورؤيته الخاصة، مثل :

❖ سمير عطا لله الذى خصص زاويته فى "الشرق الأوسط" لهذا الموضوع لستة أيام متوالية تحت عنوان (رجاء قبل أن تتصرف) .

❖ غسان الإمام فى مقالته فى "الشرق الأوسط" أيضا : (هيكل : باشا الصحافة المصرية بلغ الثمانين) مع عنوان ثان (أخطأ هيكل فى تجاهله انتقال مركز الثقل الاقتصادى والسياسى إلى الخليج).

❖ خير الدين حسيب فى افتتاحيته لعدد أكتوبر من مجلة "المستقبل العربى"، والتى نشرتها صحيفة "الخليج" أيضا.

❖ فؤاد مطر فى مقالته فى "الشرق الأوسط" بعنوان (التنحى الأكبر : والتنحى الآخر) مع عنوان ثان (محمد حسنين هيكل المنصرف بالاختيار الى الذاكرة).

❖ د. كلوفيس مقصود فى مقالته (هذا وقت الأستاذ هيكل) فى صحيفة "العربى".

❖ أحمد الربعى فى زاويته فى "الشرق الأوسط" بعنوان (حزب الأبيض والأسود).

❖ محمد العربى المسارى فى مقالته فى "الشرق الأوسط" : (هيكل .. كاتب ورؤية) والعنوان الثانى (تقمص النخوة التى فجرتها الناصرية)، ووجد نفسه كأنه المتحدث الوحيد بفصاحة).

❖ خالد البسام فى مقالته فى "الأيام" الكويتية بعنوان (ثمانون هيكل).

❖ د. على بن محمد الرباعى فى مقالته فى صحيفة "المدينة" السعودية بعنوان (ليس دفاعا عن هيكل بقدر ما هو احترام للتاريخ).

وتضمن كل من هذه المقالات نظرة نقدية لم يخل بعضها من قسوة حينا ومبالغة حينا آخر. ولكنها تميزت فى مجملها بإدراك كتابها قدر هيكل ومكانته، فجاء النقد إلا قليلا منه موضوعيا بناء. وهذا أمر متوقع من كتاب كبار، إذ لا يهبط إلى رذيلة النقد غير الموضوعى والهدام إلا الصغار الذين لا يأبهون للمعايير والقواعد والقيم ولا يعرفون عمن وعم يكتبون. ولم نر من هؤلاء، فى مناسبة انصراف الأستاذ، إلا قلة قليلة ممن لا ذكر لهم ولا قيمة لما يكتبون.

وعندما يكون النقد موضوعيا، ومقترنا بتقدير واحترام، فهو يشجع على المناقشة التى تستحق ظاهرة هيكل الكثير منها، على أن يتجه أكثر هذا الكثير الى اطلاع الأجيال الجديدة على مدرسته التى يعترف له بها حتى كثير من خصومه الشرفاء الذين يصدرون عن أن الخلاف فى الرأى لا ينبغى أن يغير الوقائع أو يزيف الحقائق.

خطأ فى فهم المناسبة :

وأبدأ بإشارة لها صلة بالشكل أكثر من المضمون وهى تتعلق بالأصداء الواسعة لقرار الأستاذ الإنصراف عن الكتابة. فقد أثارت هذه الأصداء انطباعا غير صحيح لدى البعض ، فظن أن هناك

حملة لتكريم الأستاذ هيكل فى مصر. ونجد ذلك فى مقالة غسان الإمام، الذى ربط ما اعتقده تكريما للأستاذ بحفلة تكريم الكاتب اللبنانى الكبير غسان توينى فى دبى ملاحظا أن الفرق بينهما ثلاثة أعوام.

لم يتحر الإمام ما حدث فى مصر جيدا. ولو كان فعل لعرف أن الاحتفال هو تحديدا ما اعترض عليه الأستاذ هيكل أشد الاعتراض عندما لاحظ أن ردود الفعل على قراره اعتزال الكتابة يمكن أن تصب فى هذا الاتجاه. فكانت رسالته إلى رئيس تحرير صحيفة الأسبوع الزميل مصطفى بكرى التى أدمت قلوب كثير من قرأوها لما انطوت عليه من تعبير مكثف عن طابع هذا الرجل الذى ارتبطت مشاعره على مدى عمره بقضايا وطنه، ولم يحفل أبدا بمجد شخصى إذا كان قليل من رجال الأمة فى هذا العصر يستحقونه فهو فى صدارتهم. وقد قدر د. على بن محمد الرباعى، فى مقالته، اعتذار هيكل عن أى احتفال بذكرى مولده، وقال : (أما رفض هيكل الاحتفال بمولده الثمانين واستئذانه للإنصراف فربما كان أجمل ختام فى هذه الظروف المتردية).

إن هيكل هو آخر من يمكن أن يشعر بحاجته الى تكريم جديد، لأنه لقى منه ما لا يحلم غيره بمثله، ومن أولئك الذين يفخر أى كاتب بتكريمهم له وهم قراؤه. كما أنه صار الأكثر شهرة فى الصحافة العربية على مدى تاريخها، مثلما قال سمير عطا لله فى آخر فقرة فى آخر حلقاته عن هيكل، وهو أنه (أشهر رجل فى الصحافة العربية).

ولكن رغم أن عطا لله يعرف ذلك، فقد استهوته - مثل غسان الإمام - المقارنة بينه وبين الأستاذ غسان توينى وصولا إلى قدر من المشابهة يصعب اعتباره حقيقيا. فمع كل الاحترام والتقدير للأستاذ توينى، والذى أرانى أقرب إليه فكريا وسياسيا، يظل هيكل فريدا فى الصحافة العربية، على نحو ما ذهب خالد البسام فى مقالته عندما قال أنه حصل على تألق وعظمة ومكانة لم يحصل عليهم أى صحفى عربى. ويقر سمير عطا لله بذلك صراحة فى مستهل الحلقة الرابعة قائلا : (لم يبلغ صحفى عربى ما بلغه هيكل) وإن ربط ذلك بعلاقته مع عبد الناصر، وهو ما ذهب إليه أيضا غيره، وسنناقشه بعد قليل. ولكن أبعد ما ورد فى حلقات عطا لله، عن الحقيقة هو ما ذكره عن تعاليه على زملائه وقسوته على مصطفى أمين. ولا أذكر أننى قرأت لعطا لله، الذى أهوى متابعته، ما هو أكثر إثارة للدهشة من قوله أن هيكل (دمر رموز الصحافة المصرية من حوله أو تركهم يدمرون أنفسهم) دون أن يقدم أى دليل من أى نوع. وإذا كان يعتبره مسؤولا عما حدث لمصطفى أمين، كما يبدو من بعض إشارات هنا وهناك، ففى هذا ظلم لكليهما لأن هيكل لا يحتاج لتدمير منافس له كى يتفوق عليه وهو الذى كان التفوق شيمته. كما أن مصطفى أمين لم يكن صحفيا صغيرا ينتظر من يهرع إليه لينقذه من أخطائه.

لقد اقترب مصطفى أمين من عبد الناصر مثل هيكل، فى لحظة معينة. ولكن الدور الذى كان يؤديه غلب عليه طابع السياسة المباشرة وفى أكثر جوانبها

خطورة أو مخاطرة، بخلاف هيكل الذى ارتبط مع عبد الناصر بعلاقة قامت على رؤية مشتركة تتصل بالسياسة والاستراتيجية ويدور ارتبط أساسا بالتفكير والتنظير.

اختلف دورا الصحفيين الكبيرين فى علاقتهما مع عبد الناصر. كان لهيكل دور جوهرى فى التخطيط السياسى تفكيرا وتحليلا ونصحا وتصحيحا فى بعض الأحيان. أما دور مصطفى أمين فكان له طابع ميدانى أكثر فى بعض جوانب السياسة الخارجية، وخصوصا فى العلاقة مع الولايات المتحدة. وهى كانت علاقة مضطربة مرشحة للتدمير فدمرت مصطفى أمين معها لأنه لم يأخذ حذره، فغاصت قدماه فى أوحالها. وكان هذا خطأ منه، وليس من غيره. كما كان خطأ من النوع الذى يستحيل تصحيحه. وإذا أراد الأستاذ عطا لله أن يتثبت من ذلك فليسأل من توسطوا لدى السادات بعد توليه الرئاسة لإطلاق مصطفى أمين، وكيف كان يرد عليهم قبل أن يقبل فى النهاية وبعد أربع سنوات إطلاقه ولأسباب صحية أى دون إعادة الاعتبار إليه.

وهكذا لم يكن الأستاذ سمير عطا لله منصفا فى هذه المسألة، مثلما جانب الأستاذ أحمد الريعى الإنصاف ثلاث مرات فى حديثه عن استقطاب حاد بين أنصار هيكل وخصومه.

المرة الأولى عندما اعتقد أن هناك انقساما بمعنى خلاف بين قسمين متساويين أو متقاربين، بينما الحقيقة أن تلاميذ هيكل ومحبيه هم أكثر بكثير من

خصومه وأعدائه. والمرة الثانية حين أجرى مشابهة بين الخلاف بين أنصار كل من عبد الناصر والسادات من ناحية، وبين محبى وخصوم هيكل من ناحية أخرى. فهذا صحفى وكاتب جمع بين تلاميذه ومحبيه كل الاتجاهات والآراء والمواقف من أقصى اليمين الى أقصى اليسار. ومن بين أكثرهم تقديرا له وقربا إليه من يختلفون مع بعض آرائه وأفكاره. ولذلك كان خير الدين حسيب محقا عندما لاحظ أنه (رغم أن كثيرين يختلفون مع هيكل فى مواقفه أو فى خياراته، فإن أكثرهم لا يسعه غير أن يحترم فى الرجل الالتزام لديه بما يؤمن به وأن يسلم باقتداره فى طريقة التعبير عن مواقفه). أما المرة الثالثة التى جانب الانصاف فيها الأستاذ الربعى فعندما قال أن خصومه لا يرون فيه شيئا إيجابيا وأن محبيه يرون أن لا أستاذ غيره ويكيلون له المديح ليل نهار. وإذا كان صحيحا أن معظم خصومه يفتقدون أى موضوعية، وأحيانا أى معايير، عندما يهاجمونه، فليس صحيحا أن محبيه من نوع الدراويش أو المريدين. ولا يصح الاعتماد على ما يقال ويكتب فى مناسبة من نوع انصراف الأستاذ لأنها مثيرة للمشاعر والعواطف بطبيعتها وتخلق ردود أفعال خاصة بها تصلح لها، ولكن لا يجوز الوقوف عندها باعتبارها هى المؤشر الوحيد على نوع العلاقة بين هيكل ومحبيه. ومع ذلك لم نر فى مديح بعضهم له خروجا على المألوف فى مثل هذه المناسبات، بينما رأينا فى هجاء بعض أعدائه خروجا على كل مألوف ومحترم وأخلاقى، وخصوصا ما ورد فى بعض المواقع على الانترنت، مثل "المقالة" البذيئة التى وضعها موريتانى مغمور يدعى رياض ولد أحمد الهادى على موقع من المواقع الغريبة يدعى "مفهوم دوت كوم".

ويبدو أن هذا النوع من أعداء هيكل الذين يتسمون بالبذاءة سقط من التصنيف الذى وضعه خالد البسام، وذهب فيه - على حق - الى أن (أكثرهم من أعداء النجاح) والباقون (مطبلو سلطات ومنافقون) بينما بعضهم فقط رأوا أنه (كان يلهث وراء مصالحه ومجده مهما كان الثمن)، ليصل الى أن (أكثر الحبر الذى أسيل ضده كان بغير حق).

## أسطورة العلاقة مع السلطة :

من بين الانتقادات التى كان يحلو لبعض خصوم هيكل السياسيين أن يرموه بها، منذ أن ترك الأهرام، هو أنه فقد مصادره الإخبارية التى كان يستمدها من قربه الى السلطة. ولكن كنا نفهم أن يصدر مثل هذا الكلام عمن لا صلة وثيقة لهم بهذه المهنة أو ممن لا معرفة كافية لديهم بالأستاذ، مثل ماجد حبتة الذى كتب مقالة على موقع "إسلام اون لاين" بعنوان (ثمانون عاما فى قلب الأزمات) ذكر فيه أن هيكل كان المتحدث الرسمى باسم الضباط الأحرار !

ولذلك فمن عجب أن يأتى كلام كهذا من كتاًب كبار يفترض أنهم يعرفون ما يتيح لهم حسن التقدير فى مثل هذا الموضوع الذى ينطوى على شقين : أولهما العلاقة بين هيكل والرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وثانيهما كيفية وصول صحفى وكاتب كبير الى المصادر الإخبارية ذات الأهمية القصوى وأثر علاقته مع السلطة فى ذلك . وغريب مثلا أن يكتب الأستاذ فؤاد مطر، وهو أحد أكثر من عرفوا الأستاذ، وعرفوا عنه، أن هيكل وجد نفسه فى محنة حقيقية

بعد رحيل عبد الناصر لأنه على حد تعبيره (فقد من كان يكتب من أجله وله). وقد كتب سمير عطا لله فى حلقته السادسة عن علاقة فؤاد مطر بالأستاذ هيكل قائلا : (كان لهيكل تأثير عميق فى عمل مطر الصحفى). ولذلك فالأكيد أن مطر يعرف أن هيكل لم يستمد مكانته عن عبد الناصر، الأمر الذى يجعل مقالته تثير شديد الاستغراب لأنها من بدايتها الى نهايتها توحى بأن الأستاذ لم يكن إلا ظلا للرئيس الراحل. بل يخصص قسما كبيرا منها لمقارنة تبدو مفتعلة بين تنحى عبد الناصر عام ١٩٦٧ و "تنحى" هيكل الآن، يصل فيها - فى افتعال أكبر - الى أن (روحية التنحيين الاثنين واحدة، والعقل الذى صاغ مقتضيات الأول هو نفسه الذى صاغ مقتضيات التنحى الآخر مع فارق أن تنحى عبد الناصر كان بفعل الاضطرار فى حين أن تنحى هيكل كان بفعل الاختيار واستباق لحظة لا يتمناها لنفسه ولقلمه).

أن هيكل كتب دائما من أجل مصر والأمة العربية وللقارىء فى كل مكان من بلاد العرب. صحيح أنه آمن بأن عبد الناصر هو الذى جسد حلم العرب والعروبة. وهذا حق له يتفق معه فيه من يتفق ويختلف من يتفق. ولكن أن يؤمن بسياسة عبد الناصر ودوره التاريخى شىء وأن يكتب من أجله شىء آخر. والفرق كبير، إذ كتب هيكل من أجل ما طمح إليه عبد الناصر وشاركه هو طموحه فيه، بل يعرف كثيرون إن مشاركة هيكل تجاوزت ذلك الى القيام بدور يعتد به فى صنع هذا الطموح منذ أن وضع الأفكار الأساسية التى قام عليها كتاب "فلسفة الثورة". وهناك فرق شاسع بين أن

يكتب الكاتب من أجل هدف يؤمن به ويشارك فى صنعه ويعتقد أن زعيما بعينه هو المؤهل للعمل من أجل تحقيقه، وبين أن يكتب من أجل هذا الزعيم.

ولكن إذا جاز الاختلاف على تحديد مساحة كل من الموضوعى والشخصى فى العلاقة الثلاثية (عبد الناصر - هيكل - القضية أو الهدف)، فلا يصح أن يبقى ثمة جدل فى شأن العلاقة المثلثة الأخرى (عبد الناصر - هيكل - القارىء). ففى قول مطر إن هيكل كتب من أجل عبد الناصر وله رائحة ما ردده بعض خصوم الأستاذ عن أنه فرض نمطا شموليا فى الصحافة المصرية جعل لزاما على الكاتب أو الصحفى "الحكومى" أن يكتب لقارىء واحد. وهذا قول مدفوع بنقيض له ردده بعض آخر من خصوم هيكل، وهو أنه كان يكتب بصوت الزعيم الواحد، من أجل تنميط القراء أى خلق نمط واحد من الاستجابة الشعورية أو العاطفية لما يكتبه تحقق ما أسماه البعض (الكل فى واحد). وهذا هو ما قصده من تحدثوا عن أنه كان مجرد صوت لعبد الناصر. ولكن خالد البسام عارض فى مقالته هذا الاعتقاد - ضمنيا - عندما خلص الى أن هيكل كان أكثر الصحفيين والكتاب ولاء لمهنته أولا ثم لأفكاره ولذكائه فى كل العصور منذ عصر الملك فاروق، ورغم صداقته العميقة مع عبد الناصر وارتباطه به حتى بدا وكأنه الناطق باسم الثورة ومفكرها. وعندما تحدث الأستاذ محمد العربى المسارى عما أسماه (زمن مقالات بصراحة)، قال أن هيكل كان فى هذا الزمن (صوت المؤسسة .. و"بصراحة" كانت تقرأ على أنها بيان سياسى يعكس النبض الرسمى لمصر عبد الناصر).

والمشكلة فى هذه النظرة ، سواء ركزت على أن هيكل فرض طريقة الكتابة لقارىء واحد، أو كان صوت الزعيم الأوحد الى قراء أراد حشدهم وراء هذا الصوت، هو أنها نظرة لا تاريخية تغفل السياق التاريخى.

والملاحظ أن معظم الكتاب العرب الكبار، الذين كتبوا فى مناسبة انصرافه عن الكتابة، مدركون أنه صاحب رؤية. وقد أصابوا فى ذلك كبد الحقيقة. ولكن جانب بعضهم الصواب فى تحديد جوهر هذه الرؤية، وفى إدراك مدى ارتباطها بعلاقته مع عبد الناصر. لقد وجد الأستاذ فى الزعيم الراحل تجسيدا لرؤيته لمستقبل الأمة العربية ودور مصر فيها.

فلم تكن العلاقة بينهما مجرد صلة بين رئيس دولة ورئيس أكبر صحيفة فى هذه الدولة. كانت علاقة سياسة وفكر وحوار. ولعب هيكل دورا كبيرا فى إنارة الطريق أمام عبد الناصر، إن فى الحوار الثنائى بينهما، أو من خلال كتاباته فى "الأهرام" . لم يكن صوتا لعبد الناصر، بل للرؤية التى شاركه فيها. كما كانت له مبادرات فى تطوير هذه الرؤية اعتمد فيها على مكانته ككاتب وليس على علاقته مع الرئيس.

ويمكن الإشارة على سبيل المثال الى دوره فى الاصلاحات الداخلية المحدودة عقب حرب ١٩٦٧ ليس فقط من خلال صياغة بيان ٣٠ مارس، ولكن أيضا عبر مبادرته لإنهاء تجاوزات بعض أجهزة الأمن. فكان هو، مثلا، صاحب تعبير "زوار الفجر" الذى شاع استخدامه على نطاق واسع، مثلما كان له الفضل فى

صك عدد كبير من العبارات والمصطلحات التى صارت معلما بارزا من معالم اللغة السياسية على امتداد العالم العربى. وتعد هذه واحدة من قدرات لا يجاريه فيها أحد.

وكان د. كلوفيس مقصود هو من تطرق الى دور هيكل التصحيحى الذى لا يراه إلا من يتجاوز السطح إلى الأعماق. فقد رأى - أولا - كيف أن حرص هيكل على دوره كصحفى ورفض أى منصب آخر (جعل من الصحافة واقعا لمقولة السلطة الرابعة. وكان هذا إنجازا مهما فى مرحلة من الحياة السياسية العربية كادت فيها معظم الصحف أن تكون امتدادا للسلطة الأولى، وفى أغلب الأحيان السلطة الوحيدة). كما لاحظ مقصود - ثانيا - كيف أن هيكل (تمكن من اقناع السلطة عندما كان فيها ومنها بأن تنفتح على النقد). ولذلك فهو يستغرب أن هيكل رغم هذا كله (لم ينج من تصنيفه كملمع للسلطة وكخصم لممارسة الحرية). ويفسر هذا الخطأ فى فهم دور هيكل بعوامل عدة لعل أهمها أن الخطأ قام على انطباع بأنه كان أكثر التصاقا بسياسات السلطة من كونه مصححا لإنزلاقاتها، بالإضافة الى تجاهل ما أسماه د. كلوفيس دور هيكل المستتير الذى شمل (إنشاء ورشات فكر كمركز الدراسات ومجلات الطليعة والأهرام الاقتصادى والسياسة الدولية، حيث كانت الحوارات والندوات تمهد لانضاج التعددية المطلوبة فى مرحلة لاحقة). ويعنى ذلك فى المحصلة أن هيكل لعب دورا مهما فى تصحيح القرار ولكنه ساهم أيضا فى صنع القرار.

وهو ما لاحظه خير الدين حسيب فى قوله إن هيكل كان محط ثقة الرئيس الراحل وأنه قدم مساهمات فى بناء قرار مصر فى قضايا بالغة الأهمية، وهو دور استمر ينهض به بعد وفاة عبد الناصر لفترة وجيزة. كما أشار الى أن رأى هيكل بقى مطلوبا لدى عواصم عربية قليلة أدرك قادتها أهمية أن يستمعوا منه إلى تحليل يقدرون به المواقف.

لقد كانت الرؤية المشتركة هى أساس العلاقة بين الرئيس والأستاذ. ولذلك تغير الوضع تماما عندما لم تعد ثمة رؤية يشارك فيها الرئيس الراحل أنور السادات بعد حرب ١٩٧٣ . لم يكن الأمر يقتضى أكثر من أن يبدى هيكل بعض المرونة كى يبقى صاحب حظوة لدى السادات. ولو أنه كان مجرد صوت لرئيس مصر، لسهل عليه أن يدير العلاقة مع السادات بشكل يحفظ له مكانه على رأس أكبر مؤسسة صحفية فى العالم العربى. ولكن الأمر لم يكن كذلك، لأن الأستاذ أكبر من ذلك. فأصر وقتها، عام ١٩٧٤، على الانصراف الأول .. الانصراف عن المشاركة فى صنع سياسة كان شريكا فيها حتى حرب ١٩٧٣ . فهو لا يستطيع أن يكون صوتا لسياسة لا يشارك فى صنعها لأنها تمثل خروجا على رؤيته. وبذلك الانصراف أكد أنه أكبر من أى منصب، وأن الصحفى الكاتب هو قلم قبل كل شىء وبعده.

وقد رأى كل ذى عينين أن مكانة هيكل ازدادت بعد أن ترك المنصب وتخفف من أعباء الإدارة. كما اتسع نطاقها ليشمل العالم كله، بعد أن كانت بلاد العرب هى "مملكته" التى توجه الرأى العام فيها على عرش

الصحافة والكتابة. أصبح فى إمكانه أن يكتب كتبا أكثر بخلاف مقالاته الصحفية. وأقبل ناشرون غربيون كبار عليه فكتب بالإنجليزية. ولم تكن مفاجأة لمن عرفوه أو عرفوا جيدا عنه أن كتبه بالإنجليزية حققت انتشارا فاق أعمال غيره من الكتاب بهذه اللغة من غير أهلها بمن فيهم عرب عاشوا معظم عمرهم فى الغرب ودرسوا فى جامعاته.

## .. وأسطورة فقدان المصادر:

وفى الوقت الذى صار للأستاذ قراء جدد فى بريطانيا وأمريكا فضلا عن القارئين بالإنجليزية فى بلاد أخرى على امتداد العالم، ظل قراؤه فى عالمنا العربى ينتظرون بكثير من الشوق أى مقال يكتبه أو يترجم له عن صحيفة عالمية، قبل أن يكون لهذه المجلة الفضل فى إتاحة الفرصة لهم فى متابعته بانتظام، وخصوصا ممن يحبون ويقدرون على قراءة نوع "المقال المستطرد" الذى اختاره لهذه المجلة. وهذه إضافة جديدة إلى اسلوب كتابة المقال قدمها قبل انصرافه الثانى ليناسب مجلة شهرية رصينة.

وإذا كان الأستاذ يرتاح إلى المقال الطويل الذى يلائم طريقته فى معالجة القضايا التى يتصدى لها، فهذا لا يعنى أنه لا يقدر إلا عليه. ولذلك كان أكثر ما أخطأ غسان الإمام تقديره هو أن هيكل يفعل ذلك لأنه لا يستطيع اختصار الجملة والعبارة والفكرة. وقد قفز من هذا الاستنتاج الخاطىء إلى أخر أكثر خطأ وهو أن (هيكل كاتب مقالة وليس بكاتب عمود). فهذا تصنيف مصطنع خصوصا حين يتعلق الأمر بكاتب

يرىٰ فيه الإمام نفسه مدرسة صحفية. وقال أن هيكل (مؤسسة صحفية متكاملة أو بالأحرى مدرسة صحفية يستفيد منها الصحفيون المحدثون فى صقل تجربتهم وخبرتهم ويتعلم فيها ومنها هواة الصحافة كيف يمكن اكتساب تقنية المهنة الصعبة).

فقد تميز الإمام، فى مقالته، بإدراك سليم لقيمة الأستاذ ومكانته فى عالم الصحافة العربية بوجه عام. ولكنه لم يحسن، فى الوقت نفسه، تقدير بعض الأمور. ولذلك بدت نظرته الكلية أكثر إيجابية وسلامة من معالجته لبعض التفاصيل التى يظل أهمها هو حديثه عن فقدان الأستاذ مصادره الإخبارية بعد أن ترك "الأهرام". فكان أقل استنتاجاته دقة هو أن (اهتمامات هيكل السياسية تبدو أيضا بعيدة نسبيا عن اهتمامات القارىء العربى المباشرة. والسبب فقدان هيكل مصادره الإخبارية التى حظى بها يوما لدى عبد الناصر). صحيح أن الأستاذ عرف أكثر مما عرفه غيره من الصحفيين فى مصر بحكم قربه من عبد الناصر. ولكن من التبسيط الزائد الاعتقاد فى أن الأمر يتوقف فقط على المكان، فإذا كنت قريبا لابد أن تعرف أكثر ممن هو أبعد منك.

وهذا تقدير تعوزه الدقة لأن الأهم من القرب أو البعد هو القدرة على معرفة ما هو مهم فى اللحظة المناسبة. وليس سرا أن اثنين على الأقل من الصحفيين المصريين أصبحا بعد ترك هيكل "الأهرام"، قريبين جدا إلى السادات بل كان أحدهما على الأقل شديد القرب إليه. ومع ذلك لم يحصل أى منهما على معلومات تصنع من أى منهما نجما ينافس

هيكل أو حتى يقترب من "نجوميته". والأكيد أن السادات كان لديه ما يمكن أن يتيح لصحفى يقترب منه أن يحقق "خبطات" كبرى. ولكن المهم هو أن يكون هذا الصحفى قادرا على تحديد ما يريد أن يعرفه وكيفية الوصول إليه خلال الحديث مع "المصدر" الكبير وفى اللحظة المناسبة قبل أن يصبح الخبر الخاص عاما أو مشاعا.

ويقتضى ذلك أن يكون الصحفى على أعلى درجة من الإلمام بمسارات الأحداث، وهو ما يثير مسألة المعرفة التى كانت هى طريق هيكل للحصول على المعلومات التى افتقدها آخرون. فهو لم يحصل على ما لم يحصل عليه غيره إلا لأنه كان يعرف أكثر من غيره.

وكان هذا هو أحد الأسباب الأساسية التى أدت إلى قوة علاقته مع عبد الناصر منذ البداية. فقد وجد الرئيس الراحل فيه مصدرا للمعرفة وليس فقط طالبا لها. ومن القصص التى صارت معروفة أن هيكل كان يزود عبد الناصر خلال مؤتمر باندونج الشهير بمعلومات حصل عليها بمجهوده عما كان يدور فى بعض كواليس هذا المؤتمر. فلم يكن يكتفى بانتظار خروج عبد الناصر من الجلسات ليركض وراءه طلبا للعلومات بل كان يستثمر الوقت فى جمع معلومات مهمة، الأمر الذى أكد لعبد الناصر أنه إزاء صحفى يختلف عن غيره. وكان الرئيس الراحل يعرف ذلك مسبقا، ويدرك أن هيكل ليس مجرد صحفى متميز ومتفوق على أقرانه، بل وجد فيه شريكا له فى الرؤية.

ونسى معظم من آثاروا موضوع العلاقة بين هيكل وعبد الناصر أن الأستاذ كان حاضرا فى قلب الأحداث الكبرى فى ذلك العهد باعتباره شريكا للرئيس الراحل فى الرؤية وليس فقط بحكم كونه صحفيا أو رئيس المؤسسة الصحفية الأكبر فى مصر والعالم العربى. لقد سجل هيكل وحلل أحداثا كان شاهدا عليها بحكم موقعه فى القلب منها، وليس مجرد مراقب لها.

ومع ذلك فقد حرص فى كثير من الأحيان على أن يدعم روايته بهذه الأحداث التى كان شاهدا عليها بوثائق بذل جهودا كبيرة فى الحصول على بعضها ولم تتوفر له كلها بسهولة بخلاف ما يعتقده البعض. وسأعود إلى مسألة التوثيق هذه لاحقا.

ولكن المهم الآن توضيح أنه من الخطأ الاعتقاد أن صحفيا ينتظر ما يقوله له المصدر، أى مصدر، لكى أن يكون نجما ناهيك عن أن يصبح ظاهرة فى حجم ما يمثله هيكل. فالمهم هو أن يكون الصحفى عارفا ما يريد الحصول عليه، وأن تتوفر لديه القدرة على تحديد الأسلوب الملائم لنيله. وعندما يكون المصدر رئيسا أو زعيما، يحتاج الأمر إلى معرفة أعمق وقدرة أكبر.

وإذا توفرت المعرفة والقدرة، صار ممكنا للصحفى أو الكاتب الوصول إلى مصادر الأخبار حتى إذا لم يتيسر له مصدر عظيم بالقرب منه، وخصوصا حين يتمتع أيضا بمكانة متميزة. وهذا هو ما أتاح للأستاذ أن يبقى على صلة بالمصادر الحية الرفيعة للأخبار

بعـد أن ترك "الأهرام"، بل وبات مـغـضـوبا عليـه وممنوعا من الكتابة فى مصر خلال الفترة الباقية من عهد السادات.

فإذا كان قد أثبت أن ما يحتاجه الصحفى والكاتب هو القلم وليس الكرسى، فـقـد أكـد أيضـا أن مكانة الصحفى والكاتب أهم من مثل هذا الكرسى. صخيح أن رؤساء الصحف والمجلات، خصوصا المهمة منها، يتيسر لهم الحصول على المقابلات مع رؤساء وملوك ومسئولين وصانعى قرار بسهولة أكثر مما يتاح لصحفى أو كاتب بشخصـه. ولكن هيكل كسـر هذه القاعدة لأنه كان هو خير تعبيـر عنها فى العالم العربى. فعندما كان رئيسا لصحيفة "الأهرام" حصل على شهرة لم يحظ بها غيره فى هذا العالم، ولم ينلها إلا قليل من كبار الصحفيين فى العالم. كما أن تميزه المهنى مقترنا بموقعه فى السياسة المصرية خلق له مكانة بزَّ بها غيره أيضا.

وإذا امتزج هذان العنصران مع معرفته الواسعة وإمكاناته الفائقة صار فى إمكانه أن يظل قادرا على الوصول إلى المصادر الحية للأخبار حتى اليوم. فعلى سبيل المثال، عندما وافق على طلب قناة "دريم" فى خريف العام الماضى للحديث فى موضوع الأزمة العراقية عندما تصاعدت واشتدت سخونتها، حدد موعدا عقب زيارة كان مقررا أن يقوم بها إلى بعض العواصم الأوروبية. وخلال هذه الزيارة، التقى عددا من المسئولين فى عدة دول أوروبية. وكان لدى بعضهم معلومات كانت جديدة فى حينها.

وكان فى إمكان هيكل بشهرته ومكانته أن يلتقى هؤلاء ويسألهم ويحاورهم. كما كان فى مقدوره أن يحصل منهم على ما يريده أو بعض منه حسبما توفر لهم أو رغبوا فى إعطائه لأنه كان يعرف ما يود الحصول عليه. ولا بد من وضع خطوط كثيرة تحت الفعل "يعرف لأنه هو أكثر ما نفتقده فى عالمنا العربى الآن وعلى كل المستويات وفى أوساط النخب والصفوات السياسية والإعلامية والثقافية كما فى صفوف الجمهور.

ويذكر كل من تابع مسيرة الأستاذ، بعد أن ترك "الأهرام" عام ١٩٧٤، أنه قابل رؤساء وقادة ومسئولين فى بلاد عربية وشرق أوسطية وأوروبية وآسيوية أكثر ممن التقاهم رؤساء ومديرو كثير من الصحف العربية.

ولكن يظل تميز هيكل هو فى معرفته الفائقة ما يريد الحصول عليه فى أى مقابلة. كما أن سعيه للحصول على معلومات لا تنشر فى صورة مقابلة صحفية أتاح له حرية حركة أوسع وقدرة أكبر على نقل الحديث مع من التقاهم إلى آفاق أبعد مما يمكن نشره منسوبا إلى الشخص المسئول. فالصحفى الذى يرأس أو يدير صحيفة يفضل الحصول على مقابلة للنشر حتى إذا كان فيها ربع أو ثلث ما يمكنه الحصول عليه بعيدا عن النشر. وعادة يكون المسئول الكبير أكثر حذرا من الحديث على هامش المقابلة out of record عندما يكون الحديث مسجلا للنشر كمقابلة.

ولكن ظل تميز هيكل فى معرفة ما يريد الحصول عليه، انطلاقا من المامه الشديد للموضوع بكل تفاصيله، هو العامل الأكثر أهمية وراء احتفاظه بمصادر اخبارية حية.

وفضلا عن هذا كله، فقد أحسن الأستاذ استخدام ما عرفه عن الأحداث الكبرى فى حياة أمتنا عندما كان فى قلبها. ولم يكتف بذلك كما سبقت الإشارة، بل حرص على دعم ما يرويه بوثائق أمريكية وبريطانية وفرنسية وليست فقط مصرية مما توفر له. فقد سعى من أجل الحصول على وثائق أمريكية وبريطانية قبل أن يحين موعد الإفراج عنها، أو على الأقل معرفة مضمونها. وبذل فى سبيل ذلك جهدا يندر أن يبذل مثله باحث أكاديمى عربى لا شغل له إلى توثيق عمل علمى أو أطروحة أكاديمية.

وقد فعل ذلك لحرصه على الدقة والتوثيق بغض النظر عن بعض الهنات هنا وهناك مما لا يمكن أن يخلو منه عمل بشرى وليس (ليستعرض أن يده طويلة وقدرته على التنقيب ملحاحة) كما كتب الأستاذ محمد العربى المسارى فى مقالته عنه.

لم يكن الأستاذ فى حاجة إلى أن يستعرض، وهو الذى حقق فى فترة مبكرة من حياته مجدا لا يطمح إليه كثيرون فى أواخر حياتهم. غير أن إشارة الأستاذ المسارى إلى قدرة هيكل الفائقة على التوثيق تظل مهمة. فإذا استبعدنا منها موضوع الاستعراض، تصبح شهادة كبيرة من رجل كبير : (فى كتبه غرف هيكل من المصادر بيانات عن حروب مصر استقاها

من وثائق غميسة ليستعرض أن يده طويلة وقدرته على التنقيب ملحاحة لا يكل حتى عن قراءة ما بين السطور فى افتتاحيات الجرائد الأنجلوساكسونية. ويعتبر ذلك بدوره وثائق يلجأ إليها ليدعم بها الحدوتة التى هى محور حكيه).

## قبل عبد الناصر.. وبعده !

لم يكن الأستاذ هيكل ظاهرة مصنوعة فى عهد عبد الناصر، بل كان وظل ظاهرة حقيقية يصعب تكرارها. وفى الحديث عن أثر علاقته مع عبد الناصر على دوره فى الصحافة العربية وقدرته على الوصول إلى معلومات حجبت عن غيره تجاهل لحقائق التاريخ التى تقول إن تألق هيكل بدأ قبل ثورة ١٩٥٢، واستمر بل ازداد وتوسع بعد رحيل عبد الناصر.

وكل من لديه المام بسيط بتاريخ هيكل فى الصحافة المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ يعرف جيدا أنه بدأ كبيرا. فقد أظهر منذ بداية عمله المهنى أنه يتمتع بموهبة فذة لم يكتف بها بل عمل على صقلها وتعظيمها اعتمادا على العلم والمعرفة والمتابعة فضلا عن العمل الشاق الذى لا يكل صاحبه. ومن أكثر أجزاء مقالة غسان الإمام موضوعية الجزء الذى رصد فيه تألق هيكل المبكر. وتوقف أمام أحد أعماله المهنية الكبيرة التى أنجزها فى وقت مبكر للغاية ولم يمض على عمله فى الصحافة أربع أو خمس سنوات، وهو تحقيقاته من ميدان النار فى حرب فلسطين. وقال عنها : (مضت على هذه التحقيقات ٥٥ سنة.

لكنها مازالت جديدة ومبتكرة وصالحة للدراسة ولتدريس فن الريبورتاج فن الرواية الميدانية. فأنت تشاهد فيلما تسجيليا، قصة سينمائية حافلة بالتشويق والإثارة، ووراءها مخرج صحفى موهوب).

هذا عن تميز هيكل الشاب الصغير كمراسل ومحقق صحفى. أما عن تفوقه كمحرر محترف، فقد أشار غسان الإمام إلى إنجازه التاريخى فى (تقنية إخراج الصحفة الأولى وكيفية عرض الأخبار والتحقيقات والصور فيها). وكان يشير بذلك إلى التطوير الشامل الذى أحدثه هيكل فى "الأهرام" والذى اختار غسان الإمام طريقة مقارنة موحية لتوضيحه، فقال : (قاتلت أهرام هيكل بأفضل مما قاتلت فرق المشير عامر فى حرب ١٩٦٧, مضت على تلك الحرب المشؤومة ٣٦ سنة. لكن تقنية هيكل التحريرية أيضا مازالت تصلح للتدريس والدراسة).

غير أن هذا العرض الموضوعى، فى بداية المقال، لم يظهر أثره عندما تحدث الإمام بعد ذلك فى المقالة نفسها عن افتقاد هيكل مصادره الإخبارية. فصحفى وكاتب بهذا التميز المبكر للغاية على النحو الذى رصده الإمام، لا يفقد مصادره لمجرد أنه ترك رئاسة صحيفة.

ومع ذلك يظل ثمة سؤال يثيره بعض خصوم هيكل حينا وخصوم عبد الناصر أحيانا وهو : ألم يكن فى هذا العصر صحفيون متميزون غيره؟ بالقطع كان هناك. فهذا جيل من الأجيال الرائدة. ولكن وجود متميزين لا ينفى أن هناك دائما أو فى كثير من

الأحيـان الأول بين المتـفـوقين، مـثلمـا لا ينفى وجـود الأكثر تميزا أن هناك متميزين على مستوى رفيع.

فعلى سبيل المثال كان أحمد شوقى هو الأميـر بين كـوكبـة من الشـعـراء يسـتـحق كل منهم أن يكون ملكا متوجا على عرش الشعر. وكذلك الحال بـالنسبـة إلى محمد عبد الوهاب فى الموسيقى وأم كلثوم فى الغناء، والأمـثلة كـثيـرة. فظاهـرة الأول أو الأكـثـر تميـزا بين المتميزين معروفة وشغلت اهتمام مفكرين وفلاسفة متعددين وظهرت نظريات مختلفة لتفسيرها أبرزها، من وجهة نظر كاتب السطور، نظرية ماثيو أرنولد عن التفاعل بين الإبداع الفردى واللحظة التاريخية.

ولذلك يعتبر هيكل ظاهرة يصعب تكرارها وتحتاج إلى دراسة متأنية لجوانبها المختلفة، وهو ما دعا إليه د. على بن محمد الرياعى فى مقالته، إذ قال (أننى كأحد المتابعين لهيكل كاتبا ومفكرا وإعلاميا أرى أن دراسة هيكل باعتباره ظاهرة نادرة لم تقع حتى الآن. وأعنى الدراسة العملية الهادئة).

## مصرية هيكل .. وعروبته :

غيـر أن أغـرب مـا فى بعض المقـالات مـوضع المناقشـة هو النظر إلى هيكل - العـروبى من رأسـه حتى قدميه كما لو أنه يعبر عن رؤية تعتبر مصر هى مركز الوطن العربى وما دونها هوامش. وذهب الأستاذ محـمد العربى المسارى إلى أن هيكل (أدمن على أنا مـركـزية لا تخلو من فـضـاضـة). ولكن حـينا أراد أن يسـتـشـهـد على ذلك لم يجـد إلا مـحـاضـرة من

محاضرات الأستاذ الكثيرة ركز فيها على تاريخ مصر فى ما كان عليه أن يتحدث عن تاريخ العرب كلهم! فقال : (حينما دعى إلى أن يتحدث فى باريس فى منتصف التسعينات عن أزمة العرب ومستقبلهم، انساق يتحدث عن تاريخ الأمة فى نحو مائتى سنة فجعله سلسلة أحداث محصورة فى ما بين قوسين : محمد على وعبد الناصر). ولكن الأستاذ المسارى يعرف أن هيكل لم ينظر أبدا إلى تاريخ مصر معزولا عن التاريخ العربى. وهذا هو ما أدركه خير الدين حسيب فى مقالته عندما تحدث عن هيكل المؤرخ و(جهده المميز فى كتابة تاريخ سياسى جديد للمنطقة العربية). فقد أشار إلى أنه (لا ينتقص من قيمة هذا التأريخ السياسى إنه انطلق من مصر فى المقام الأول وتكرس لحوادثها ووقائعها أكثر من غيرها. ذلك أن مصر كانت فى قلب أحداث المنطقة والمسرح السياسى الرئيسى لهذا التأريخ).

والحق أن دور مصر الريادى وجدارتها بقيادة الأمة هى من الأمور المتفق عليها بين معظم العروبيين فى كل مكان. والمسارى نفسه يتفق مع ذلك ويقول : (ليس هناك إدعاء فى القول إن مصر سباقة وإنها مركز). إذن فيم المشكلة ولماذا يعتب المسارى على الأستاذ؟

ربما نجد الإجابة فى قوله أن (مقولة المركز والهامش طرأ عليها تعديل وحدث شىء ما فى التاريخ العربى المعاصر يقول لنا إنه بدل المركز أصبح هناك عدة مراكز). ولكن هذا التطور، بدوره، ليس مختلفا عليه ولا يتعارض مع الإنطلاق - ابتداء - من أن مصر هى المركز الذى إذا نهض قام بدور القاطرة

التى تشد الأمة إلى التقدم. ولا يختلف هيكل، هنا، على هذا الشىء الذى يقول الأستاذ المسارى أنه حدث فى التاريخ العربى المعاصر لأسباب إقليمية وأخرى تتعلق بالسياسية الخارجية المصرية. ولذلك تظل فكرة أنه كلما نهضت مصر تقدم العرب صحيحة. ولا يبدو من سياق مقالة الأستاذ المسارى أنه يختلف عليها، بخلاف سمير عطا الله وغسان الإمام اللذين يستحق ما كتباه فى هذا المجال وقفة. فقد رأى الأستاذ عطا الله فى حلقته الثانية أن (هيكل لا يرى حوله دورا عربيا لأحد سوى مصر). وهذه نتيجة لا مقدمات تؤدى إليها، لأن ثمة فرقا شاسعا بين اعتبار مصر الأكثر قدرة على قيادة العرب المحفوظة أدوار كل منهم وإلغاء هذه الأدوار لصالحها فلا يبقى دور إلا لها وحدها.

والأهم من هذا كله أن هيكل حين يتحدث عن مصر والعرب إنما يعنى رابطة أكبر من قياس دور كل بلد كبر أو صغر. إنها الدائرة العربية التى ورد ذكرها فى كتاب "فلسفة الثورة" الذى كان ثمرة حوار مع عبد الناصر أكد الرؤية المشتركة بينهما. وقد قال عنها (إن هذه الدائرة منا ونحن منها، امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا لا مجرد كلام). وإذا كانت مصر، فى هذه الرؤية، هى البطل الذى كان دور هائم على وجهه يبحث عنه ليقوم به، فإن هذا الدور ( ليس دور زعامة) وفق كلمات "فلسفة الثورة"، وإنما هو (دور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه خلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة). والإيمان بدور هذه معالمه لا يمكن أن يفهم أبدا باعتباره تفضيلا لمصر أو عجزا عن رؤية دور عربى سوى دورها.

وكثيرا ما كان هيكل يربط حديثه الأساسى، فى هذا العمل من أعماله أو ذاك، عن مصر بالوضع العربى الحالى. وقد أشار إلى ذلك خير الدين حسيب فى مقالته قائلا : (ما كان هيكل يقصر حديثه عن مصر، وهو ما انفك يدافع عن اطروحة مفادها أن مصر لا تستطيع العيش ولا حفظ أمنها القومى خارج محيطها العربى، وهذا هو ما وجه نظرته إليها وكتابته عنها).

وإذا انتقلنا إلى مقالة غسان الإمام نجد أنه ذهب أبعد بكثير من الأستاذ العربى المسارى فى حديثه عن المركز والهامش. فقد تجاوز مقولة تعدد المراكز وقفز إلى القول إن مركز الثقل الاقتصادى والسياسى انتقل إلى الخليج العربى. ولكن لأنه ذهب إلى موقف قصى يصعب أن يجد من يتفق معه عليه فهو لم يتهم هيكل وحده بأنه لم يدرك وربما يتجاهل أن الخليج وليس مصر هو مركز الثقل. فقد اتهم المصريين كلهم تقريبا أو ما أسماه "الرؤية المصرية المبسطة" بعدم إدارك هذا التغير الذى حدث أو تجاهله. ولو أنه وجه هذا الاتهام إلى معظم العرب لكان أكثر صدقية. والمسألة الجوهرية هنا لا تتعلق بموقع مركز الثقل أو المركز الجديد بل بالمنهج المتبع فى النظر إلى موقع مصر فى عالمها العربى.

فالمقتنعون بأن مصر هى المركز يعنون أنها القلب الذى ينظم حركة الدم فى مختلف أنحاء الأمة وأنها تؤدى بذلك دورا ضمن مجموعة أدوار. ويرى هؤلاء وإن عبروا عن هذا الرأى بصيغات مختلفة، أن تعدد المراكز العربية هو تطور طبيعى وله أهميته فى لحظة

تاريخية صعبة تعانى الأمة فيها محنة، ولكن الخروج من هذه المحنة يبدأ بنهوض مصر ونهضتها وبالتالى قيامها بدورها الريادى الذى يجعلها - موضوعيا - مركز الثقل حتى إذا لم ترغب هى فى ذلك. وهذا هو ما يراه معظم العروبيين على امتداد العالم العربى وليس هيكل وحده.

فمركز الثقل الآن ليس مستقرا فى الخليج أو غيره، بل موزع بين عدة دول بخلاف ما ذهب إليه غسان الإمام واتهم هيكل بأنه إما لا يراه أو يتجاهله. فمن ملكات هيكل التى يعترف له بها معظم خصومه قدرته الفائقة على أن يرى الأحداث فى تطورها وقبل أن تتبلور أو تكتمل. وليقرأ الإمام ما كتبه د. على الرباعى وما ختم به الأستاذ المسارى مقالته. فقد كتب الرباعى إن (هيكل نوع نادر من الكتاب يستشرف المستقبل ويحلل الواقع. ومن قرأ كتابه "آفاق الثمانينات" قبل ٢٥ سنة ويعيد قراءته اليوم سيجد أن عقلية هذا الكاتب استباقية وراصدة بشكل واع). أما ما ختم به الأستاذ المسارى فهو خير ما نختم به هذا الموضوع الذى يصعب الانتهاء منه. فقد تحدث عن قدرة هيكل على التفرس فى الحقائق الجديدة ضاربا المثل على ذلك بما كتبه منذ عشر سنوات عن أن أمريكا عازمة على أن يكون القرن الواحد والعشرون قرنا أمريكيا. وقال : (منذ عقد أو يزيد، استنبط هيكل من أوراق أمريكية ارهاصات أصبحت اليوم هى الكلام الدارج على لسان المحافظين الجدد. كل الناس قرأوا ذلك. لكن هيكل قرأه بعين فاحصة).

# الفصل الثانى

# تجربة فريدة فى الكتابة بلغتين

تقاس أهمية الكاتب وما يكتبه بمؤشرات متعددة أهمها إقبال الناس على قراءته وبالتالى مدى انتشار كتاباته وحجم توزيع كتبه. ولكن نادرا ما تتاح فرصة لقياس مدى تمسك الناس بالكاتب وإصرارهم على أن يواصل الكتابة وجزعهم إذا أراد التوقف عنها، وفق ما رأيناه عندما قرر الأستاذ محمد حسنين هيكل أن يكف عن الكتابة عند بلوغه سن الثمانين فى ٢٣ سبتمبر ٢٠٠٣ .

ولا يحصل على هذه المكانة لدى القراء عادة إلا قليل من الكتاب السياسيين فى كل عصر. وإذا كان الأستاذ هيكل يعتز بالدور الذى قام به فى مجال الصحافة، وبانتمائه الى هذه المهنة الى حد أن لقب "الجورنالجى" هو الأحب إلى نفسه، فقد تجاوز إبداعه حدود المهنة والوطن معا. وليس أدل على ذلك من أن كتبه هى الأكثر توزيعا بين المطبوعات السياسية العربية. كما أن نسخها المكتوبة باللغة الإنجليزية تحظى بأفضل انتشار فى الخارج مقارنة بغيره من الكتاب العرب.

فهناك مثقفون وأكاديميون عرب كثيرون مقيمون فى أمريكا وبريطانيا، ويكتبون باللغة الإنجليزية. ولكن

كتاباتهم لم تحقق انتشارا يقارب كتب هيكل، لأسباب أهمها أنها تعنى قارئا متخصصا فى الغالب. ولذلك لم يستطع أى منهم أن يصل الى القارىء العام الأجنبى الذى يخاطبه هيكل.

ويقترن هذا الإنجاز بتجربة فريدة فى نوعها لا مثيل لها حتى الآن. وهى الكتابة بلغتين مختلفتين ومخاطبة جمهورين متباينين. وهذه تجربة لا يعرف معظم قرائه عنها. ولذلك سألقى فى الصفحات التالية ضوءا عليها من خلال إجراء مقارنة تفصيلية بين النسختين الإنجليزية والعربية لأحد أهم كتبه وهو (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) والذى حمل بالإنجليزية عنوان (Secret Channels) وصدر عام ١٩٩٦ .

وهذه تجربة فريدة لأن الكاتب، هنا، يكتب كتابين فى الموضوع الواحد. أو قل الكتاب نفسه، مرتين إحداهما بالإنجليزية والأخرى بالعربية. فهو لا يترجم ما كتبه الى اللغة الأخرى، وإنما يعيد الكتابة. وهذا هو مصدر تفرد التجربة، إذ المعتاد أن يكتب الكاتب بلغته الأصلية وتجرى ترجمة الكتاب الى لغة أخرى.

وقد حدث هذا بالفعل فى بعض كتبه التى كتبها فى النصف الثانى من سبعينات القرن العشرين حين كان ممنوعا من النشر فى مصر بسبب خلافه مع الرئيس الراحل أنور السادات. فكانت كتبه تصدر فى الخارج ثم تترجم بواسطة غيره. ولم يكن قادرا على التحكم فى عملية ترجمة هذه الكتب رغم أن بعضها كان بالغ الأهمية مثل (الطريق الى رمضان) عام ١٩٧٥ و (الحل والحرب) عام ١٩٧٧ .

ولكن عندما كتب كتابه الأكثر شهرة (خريف الغضب) بطلب من أحد كبار الناشرين البريطانيين وهو اندريه دوتش، واجه موقفا يتسم بحساسية خاصة. وقد شرح الأستاذ هيكل أكثر من مرة هذا الأمر، إذ كان السؤال المطروح فى العالم كله هو كيف اغتيل الرئيس الراحل أنور السادات، وكان مضطرا الى تحليل جوانب سلبية فى سلوكه السياسى، والحديث ليس فقط عن خبايا الأحداث ولكن أيضا عما يسميه دخائل النفوس، من خلال الاعتماد على نوع من التحليل النفسى فى الكتابة السياسية. كما أنه كان مختلفا مع الرئيس السادات وخارجا من الاعتقال الذى تعرض له ضمن إجراءات سبتمبر ١٩٨١ . ولذلك كان تقديره أن حساسية الموضوع تقتضى حذرا شديدا حتى لا يساء فهم ما كتبه. فلم يكن ممكنا، إذن، أن يترك نقله الى اللغة العربية لمترجم مهما كانت إمكاناته.

فأراد منع حدوث أى التباس من جراء الفرق بين اللغتين. ولذلك قرر أن يقوم هو بهذه المهمة وأن "يترجم" الكتاب بمقدار ما يستطيع كاتب لا يتوقف عقله عن الحركة ليل نهار أن يترجم لنفسه. فمن الطبيعى أن ترد على ذهنه أفكار خلال عملية "الترجمة" هذه، وأن يتصرف بالتقديم أو التأخير، وبالإجمال أو التفصيل مادام ملتزما بالبناء العام للكتاب.

وإذا كان هذا التصرف بدا محدودا بدرجة أو بأخرى فى كتاب (خريف الغضب)، فقد ازداد كثيرا فى الكتاب التالى الذى كان عن حرب ١٩٥٦ فى

مناسبة مرور ثلاثين عاما عليها. فعندما نقارن بين النسختين الإنجليزية والعربية لهذا الكتاب، نجد فرقا كبيرا فى الحجم والتفاصيل، فضلا عن أن النسخة العربية كانت بداية لمجموعة كتب عن الحروب العربية الإسرائيلية شكلت فى مجموعها أهم قراءة فى حروب الثلاثين عاما (١٩٥٦ - ١٩٦٧ - ١٩٧٣ - ١٩٨٢). ولذلك فإن المشروع الذى بدأ بكتاب (Cutting the Lion's Tail) اتسع نطاقه كثيرا جدا، وأصبح أربعة كتب باللغة العربية (ملفات السويس وسنوات الغليان والانفجار والسلاح والسياسة). فقد وجد الأستاذ أنه مضطر لأن يروى ما حدث بقدر من التفصيل لقارىء عاش الحوادث، ولكنه وجد روايات متناقضة وأحيانا مشوهة سواء بطريقة متعمدة أو غير مقصودة. ولكنه لم يشأ، فى الوقت نفسه، أن يكتب مجرد رواية جديدة للأحداث تضاف الى روايات أخرى. ولذلك لم يكتف بما عرفه من وقائع بحكم أنه كان فى موقع سمح له بالاقتراب من الأحداث، خصوصا أن هناك من ادعى أنه شهدها واقترب من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر طول فترة حكمه ثم من الرئيس الراحل أور السادات فى بداية عهده وحتى أوائل عام ١٩٧٤ . ولذلك لجأ الى الوثائق كى لا يكون حضوره فى قلب الأحداث هو سنده النهائى، بل الأوراق التى تثبت ما يرويه.

وهكذا اتجه هيكل الى كتابة الكتاب الواحد مرتين بلغتين فى تجربة فريدة. فهو يكتب بالإنجليزية لقارىء أجنبى فى الخارج، ثم يسترجع ما كتبه ويعكف على الكتابة مرة أخرى للقارىء العربى الذى يتابع

أعماله. وخلال فترة استرجاعه ما كتبه فى الطبعة الإنجليزية والتأهب للطبعة العربية، والتى تستغرق عدة أسابيع، يكون الأستاذ قد تأمل الموضوع مجددا. وربما يكتشف فى بعض الأحيان أن ثمة معلومة وردت فى الطبعة الإنجليزية تحتاج الى تدقيق فيقوم بتدقيقها فى الطبعة العربية، وهذا ما يفسر ما سنراه عندما نقارن بين طبعتى كتابه المهم عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل. ولكن الأهم من ذلك هو أن تأمله ما كتبه فى الطبعة الإنجليزية يدفعه أحيانا الى إعادة النظر فى تحليل أو تفسير فيزيد فيه أو ينقص، يضيف إليه أو يراجعه. ولذلك سنجد بعض التباين فى تفسير بعض الأحداث بين الطبعتين الإنجليزية والعربية. وقد يظن المرء للوهلة الأولى أن الأستاذ نسى تفسيرا قدمه فى الطبعة الإنجليزية فطرح غيره، أو أن ثمة تناقضا فى التفسير. غير أن تجاوز النظرة الأولى السطحية يقود الى إدراك أن اختلاف التفسير فى بعض الحالات يعبر عن مزيد من تأمل الموقف، خصوصا أن الانتقال الى الطبعة العربية يوفر له مساحة أوسع مقارنة بالطبعة الإنجليزية حيث يتم الاتفاق مع الناشر على عدد كلمات الكتاب وليس فقط عدد صفحاته. ومع ذلك فالحالات التى نجد فيها اختلافا فى التفسير قليلة للغاية. وقد قمت بحصرها فى المقارنة الواردة فى هذا الكتاب بين طبعتى كتاب المفاوضات السرية.

وربما لا يدرك أهمية تجربة الكتابة بلغتين وما تقتضيه من براعة ومهارة إلا من تصدى لمثل هذه المقارنة ويعرف كيف كتب الأستاذ هيكل لقارئين

مختلفين تمام الاختلاف. فالقارىء الأجنبى لا يتابع قضايانا العربية التى كتب هيكل فيها وإنما يعرف عناوينها. وقد لا يكون هذا القارىء مهتما بها. فإذا اهتم جاء اهتمامه محدودا أو عابرا. ولذلك يكون على الكاتب صاحب هذه التجربة الفريدة أن يدفعه الى الاهتمام، بخلاف القارىء العربى المهتم أصلا.

فهناك تباين، اذن، فى طبيعة القارىء هنا وهناك يفرض عليه اختلافا بين النصين المكتوب أحدهما بالإنجليزية والآخر بالعربية. فهو فى النص العربى يضيف ويزيد ويتوسع ويضع الوثائق التى يستند اليها. وهو لا يعتمد فقط على معرفته المباشرة بالأحداث، وما أغزرها. فقد أتيح له أن يلتقى معظم قادة الدول العربية وكثير من قادة الدول الأجنبية، فضلا عن اتصالات لا تحدها حدود مع شخصيات ومؤسسات شتى على امتداد البسيطة. فإلى جانب مصادرة الحية التى يندر من اتيح له مثلها على الصعيد الدولى وليس فقط العربى، يحرص على العودة الى الوثائق والأوراق التى عمل من أجل الوصول اليها فنال بعضها بمشقة بينما تيسر له بعضها الآخر بسهولة.

وفضلا عن الاختلاف فى طبيعة القارىء العربى والأجنبى، ثمة تباين كبير بين اللغتين الإنجليزية والعربية. فلكل منهما منطقها الداخلى وعقلها الخاص. وما لا يعرفه كثيرون أو من لم يطلعوا على كتابات الأستاذ بالإنجليزية أنه ملم إلماما كاملا بدقائق هذه اللغة وبارع فى الكتابة بها كالمتكلمين بها. ومن هنا إقبال القارىء بها على كتبه إقبالا لا مثيل له

بالنسبة الى كاتب لغته الأولى هى العربية. فهناك كتاب غير إنجليز ولا أمريكيين تحظى كتبهم بالإنجليزية بانتشار كبير. ولكن الإنجليزية هى لغتهم الأولى، وربما الأخيرة أيضا. وأهمهم كتاب هنود.

أما بالنسبة الى كاتب يكتب أساسا بلغة غير إنجليزية، يعد الأستاذ هيكل هو الأكثر انتشارا حين يكتب بهذه اللغة. ومن أوجه تفرد هذه التجربة أيضا أن هيكل صاحب الأسلوب والنمط المميز فى كتاباته العربية حقق إنجازا باهرا فى الكتابة بلغة ليس فيها مجال للتميز أو التفرد فى الأسلوب بالشكل الذى تعرفه اللغة العربية. فالكتابة السياسية بالإنجليزية ليس فيها أسلوب فى كتابة الحدث وإنما طريقة فى رواية هذا الحدث. فعقلية هذه اللغة تقريرية Narra-tive بخلاف اللغة العربية التى يروى الكاتب بها الحدث لقارىء معنى بالأسلوب ويميز بين أساليب الكتاب وليس فقط بين مضمون ما يكتبونه، بل يركز بعض القراء على الأسلوب أكثر من المحتوى.

والفرق بين اللغتين، الى ذلك كله، هو فرق بين ثقافتين مختلفتين وعقليتين متباينتين. وربما هذا هو أحد الأسباب المهمة التى تفسر ضعف التواصل الثقافى والحضارى فى عالم حقق طفرة هائلة فى مجال الاتصالات وتقريب المسافات بين أجزائه. فالترجمة لا تستطيع تحقيق هذا التواصل مهما كانت براعة القائمين بها، لأنها تمثل نقلا لنص مكتوب أصلا فى إطار ثقافة معينة. ولذلك لا يحقق الكتاب المترجم أثرا يعتد به بسبب الفرق بين ثقافتى اللغة المكتوب بها والمنقول إليها، بخلاف الكتاب المكتوب أصلا باللغة الإنجليزية.

وربما تصعب الإحاطة الكاملة بتجربة هيكل الفريدة فى الكتابة بلغتين لقارئين مختلفين بدون إلقاء نظرة فاحصة على أحد كتبه بالعربية والإنجليزية لنرى نموذجا لهذه التجربة وهو الكتاب الذى عالج قضية المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل وبدأ العمل فيه عقب التوصل إلى اتفاق أوسلو.

وتحمل الطبعة الإنجليزية عنوان "القنوات السرية قصة مفاوضات السلام العربية الإسرائيلية من الداخل".

Secret Channels - The Inside Story of Arab Israeli Negotiations

وتحمل الطبعة العربية عنوانا رئيسيا واحدا فى أجزائها الثلاثة وهو : "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل". كما يحمل كل جزء (كتاب) عنوانا خاصا به كالتالى :

الكتاب الأول : "الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية".

الكتاب الثانى : "عواصف الحرب وعواصف السلام".

الكتاب الثالث : "أوهام السلام أوسلو ما قبلها وما بعدها".

ويظهر أثر اختلاف قارىء كل من الطبعتين منذ البداية ومن مقدمة كل منهما. وقد حرص الأستاذ هيكل على توضيح ذلك فى مقدمة الطبعة العربية بقوله :

"عندما أتعرض لترجمة أعمالى إلى العربية لا أكتفى بالترجمة، وإنما تدفعنى اهتمامات القارئ العربى إلى الأبعد بالزيادة، وإلى الأوسع بالتفصيل، وذلك يجعل الكتاب الواحد بالفعل كتابين". هذه الفقرة التى وردت فى مقدمة الطبعة العربية تؤكد فى وضوح أن هذه الطبعة تختلف عن الطبعة الإنجليزية التى تحمل عنوان "القنوات السرية" (Channel Secret) وعندما يقول المؤلف إن الاختلاف يصل إلى حد يجعل "الكتاب الواحد كتابين"، لابد أن يتساءل كثيرون عن مدى الفارق بين الطبعتين.

ولا يكفى ما أوضحه المؤلف عندما أشار إلى أن "الكتاب العربى" يتضمن تفاصيل أكثر، لتقديم إجابة شافية عن السؤال. فهو كتب، فى مقدمة الطبعة العربية، أنه عندما يقوم بنفسه على هذه الطبعة "يتسع مجالها، وتزداد تفاصيلها، وتلتحق بها وثائقها، حتى يكاد الكتاب العربى أن يصبح بالفعل شيئا مختلفا عن الأصل الإنجليزى، وإن بقى الجوهر والسياق والاتجاه واحدا فى الحالتين". ويضيف عن الطبعة العربية : "ترجمت نصوصها بنفسى، وتوسلت فيها، وزدت عليها، وألحقت بها وثائقها".

وكان الاستاذ هيكل بدأ يترجم لنفسه إلى العربية منذ بداية الثمانينات عندما أصدر كتاب "خريف الغضب" الشهير بسبب حساسية موضوعه كما سبقت الإشارة. ولكن تدل المقارنة بين الطبعتين على أن الاختلاف لا ينحصر فى أن احداهما (العربية) تتضمن تفاصيل أكثر إذ صدرت فى ثلاثة كتب يبلغ عدد صفحاتها مجتمعة ١٢٣٠ صفحة بخلاف نحو

مئة صفحة من الوثائق فيما صدرت الطبعة الإنجليزية فى كتاب واحد يتضمن ٥٥٤ صفحة. فالطبعة الإنجليزية تحوى بدورها تفاصيل أوفر فى بعض الأمور ومعلومات لا تتضمنها الطبعة الإنجليزية. هذا فضلا عن اختلاف طريقة المعالجة وتباين نوعية الخطاب وفقا لطبيعة قارئى كل من الطبعتين.

وكانت الطبعة الإنجليزية صدرت أولا فى لندن فى شهر يناير ١٩٩٦، فيما صدر الكتاب الأول من الطبعة العربية فى القاهرة فى شهر مارس، والثانى فى شهر يونيو، والثالث فى بداية شهر أكتوبر.

وتعد هذه أول مرة تسبق فيها الطبعة الإنجليزية التى صدرت عن دار النشر "هاربر كولينز"(Harper Collins Publishers).

ويفسر المؤلف تأخر صدور الطبعة العربية، بأنها "واجهت ظروفا غير مألوفة، أو على الأقل غير عادية" حيث كان مقررا أن تقوم "مؤسسة الأهرام" بنشرها، ولكن ظروفا أدت إلى صدورها من خلال "دار الشروق" فى القاهرة.

ولذلك لم يتمكن الاستاذ هيكل من الحفاظ على التقليد الذى يقول إنه حرص عليه منذ منتصف الثمانينات عندما "سمح لكتبى أن تطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر كنت فيها أمارس عملى من وطنى دون وسيلة لنشره فى هذا الوطن".

وترتب على ذلك أن اكتمل نشر الطبعة العربية، بكتبها - أجزائها الثلاثة - بعد أكثر من ثمانية شهور على صدور الطبعة الإنجليزية. ولكن كان واضحا منذ صدور الكتاب الأول فى الطبعة العربية الفرق بين الطبعتين. وهو اختلاف يظهر لدى مطالعة المقدمة فى كل منهما. فالمقدمة الإنجليزية جاءت قصيرة مركزة لا يتجاوز حجمها حوالى ٩٥٠ كلمة أى نحو ٤٠ فى المئة من حجم مقدمة الطبعة العربية التى وردت فى جزئها الأول فى حوالى ٢٤٠٠ كلمة.

ولكن الأهم هو أن المقدمتين تختلفان فى الصياغة. وتتسم المقدمة العربية بأنها أكثر وضوحا وصرامة فى نقد عملية السلام العربية - الإسرائيلية، من خلال الدعوة إلى التمييز بين الحقائق والأوهام، وبين الوقائع والخيال، بالنسبة إلى هذه العملية. وهذا المعنى الذى يشدد عليه بصراحة فى المقدمة العربية، يوجد فى المقدمة الإنجليزية، ولكن بصياغة مختلفة تلائم القارئ الأجنبى.

ففى الأولى (العربية) يوضح أن الرئيس الراحل أنور السادات "تصرف، ومعه آخرون، بظن أو وهم أنه "سلام"، ويظن أو وهم أنه فى صالح القضية المركزية لكل العرب". ويعبر عن اعتقاده مع اقراره بأنه قد يكون لغيره رأى مخالف، فى أن "هذه الظنون والأوهام كانت هواه (السادات)، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تحريضا وغواية من رفاق له خطر ببالهم أن الصراع العربى - الإسرائيلى هو سبب سهرهم وأرقهم وقد آن أن يناموا مستريحين وأن يستيقظوا هانئين".

ويوضح المؤلف فى المقدمة العربية أيضا، أنه ليس هناك ما يدل على أن ما حصل هو "سلام"، ولا على أن القضية الفلسطينية - التى يكرر وصفها بـ "القضية المركزية لكل العرب" - استفادت كثيرا من كل ما جرى. ويمضى خطوة أبعد، عندما يقطع بأن : "ما تنازلت إليه القضية المركزية لكل العرب يمتد تأثيره الآن إلى صميم الروابط التى يمكن أن تشكل جامعا لإرادة الأمة إزاء قضاياها، بل إزاء مصائرها".

وهو ينتقد السياسة المصرية التى يحملها المسؤولية الأولى عما حصل تحت اسم السلام، على الرغم من أنه يستخدم عبارة "ديبلوماسية" حين يقوم هذه السياسة : "ليس مؤكدا أن مصر فيما تصرفت فيه أدت دورها العربى بما يحفز مقوماته". وسرعان ما يتجاوز المعنى النسبى المتضمن فى عبارة "ليس مؤكدا"، إلى معنى لا يخلو من إطلاق الحكم، حين يكتب : "والحاصل فى هذا الشأن هو أنه عندما تكون سياسة مصر أن تقود العالم العربى إلى صلح كيفما كان وكيفما اتفق مع إسرائيل، فإن سطوة الولايات المتحدة تستطيع أن تسوق الدول العربية إلى هذه السياسة بطريقة أسرع وأكفأ لا تحتاج إلى مصر دورا أو زعامة". ثم هو يحمل مصر السادات مسؤولية الوضع الذى آل إليه الفلسطينيون، مؤكدا أنه "عندما مشت مصر على طريق الاتصالات والمفاوضات السرية مع إسرائيل وتوصلت إلى ما توصلت إليه، فإن العالم العربى الذى انفك جامعه، لن يترك للفلسطينيين خيارا غير أن يجربوا بأنفسهم، وفى أسوأ الظروف. وجربوا فعلا، ووصلوا إلى أوسلو

وتوابعها فى القاهرة وواشنطن، مرورا بخبرات وقعت لهم على ساحات شاسعة فى المنطقة ما بين بيروت وتونس وطهران والجزائر واستوكهلم وجنيف وغيرها".

هذا النقد لعملية السلام ودور مصر فيها يحضر بالصياغة الملائمة للمقدمة الإنجليزية، التى تخاطب قارئا غربيا بخاصة، وغير عربى بعامة. وهو يستهلها بإشارة ذات مغزى - فى هذا الإطار - إلى ما قاله ألبرت انيشتاين ذات يوم من أن هو الصراع بين حقين. ومن دون أن يتوقف عند كلام انيشتاين، يمضى على الفور موضحا أن الكتاب هو قصة جهود رجال سعوا إلى صنع السلام مثل انيشتاين، ومنهم رؤساء وملوك وسياسيون وأكاديميون، ومشيرا إلى أن عملهم فى هذا المجال كان سريا بطبيعته.

وإذا كانت المقدمة العربية قد ناقشت "حقيقة السلام" من منظور أنه ليس سلاما حقيقيا ولا هو فى صالح العرب، فقد اهتمت المقدمة الإنجليزية بتفسير رفض العرب التفاوض مع إسرائيل على مدى ربع قرن، باعتباره مستعصيا على الفهم فى الغرب، أو فهم أولئك الذين يعيشون خارج الشرق الأوسط، على حد تعبير المؤلف. وهنا تظر قدرة هيكل على مخاطبة قارئين مختلفين ليس فقط فى لغتها ولكن بسبب التفاوت الكبير فى مستوى معرفتهما بموضوع الكتاب كما سبقت الإشارة.

وهو يوضح أن العقلية التى وقفت وراء نفى الآخر (Ostracization) هى أحد موضوعات الكتاب الأساسية، مشيرا إلى أنه حتى فى العام ١٩٩٥ (وقت

كتابة الكتاب) بعد ٢١ سنة من المفاوضات العربية - الإسرائيلية المباشرة، مازالت أصداء هذه السياسة مسموعة فى العالم العربى.

ووجد الكاتب ضرورة فى الطبعة الإنجليزية للتوسع فى تفسير لماذا "لم يكن فى استطاعة مصر أن تتصل أو تتفاوض" وتوضح المقدمة الإنجليزية أن الكتاب يناقش العقلية التى أدت إلى سياسة الرفض العربى للتعاطى مع إسرائيل على مدى ربع قرن. والمؤلف، إلى ذلك، مهتم فى المقدمة الإنجليزية بأن يخاطب القارئ الغربى بلغة يستطيع استيعابها. فعلى سبيل المثال، تتضمن المقدمة الإنجليزية أن حلم إسرائيل فى أن تكون جزءا مقبولا فى منطقة الشرق الأوسط سيظل حلما إلى أن تتصرف كشريك، أو إلى أن تهتم بمتطلبات السلام أكثر من حقائق القوة. كما يدلل على أن إسرائيل لن تفعل ذلك عبر التذكير برفضها طلب مصر الإنضمام إلى معاهدة حظر الانتشار النووى.

ويكتب المؤلف فى المقدمة الإنجليزية أن كثيرين افترضوا أن السلام صار فى متناول اليدين عندما تصافح عرفات ورابين فى حديقة البيت الأبيض فى سبتمبر عام ١٩٩٣ . ويشير إلى مبادرة قام بها سكرتير عام منظمة اليونسكو الدولية فريدريكو مايور لتنظيم ندوة بين مثقفين عرب وإسرائيليين لبحث كيفية التحول من ثقافة الصراع إلى ثقافة السلام فى منطقة الشرق الأوسط موضحا بأن مايور قام بتغيير عنوان الندوة من "السلام غدا" إلى "السلام اليوم"، عندما وافق عرفات وبيريز على

المشاركة فيها. ومما له مغزى مهم، من منظور موقف المؤلف تجاه هذا السلام، إشارته الذكية إلى أن مايور حاول بجرة قلم أن يدفع التاريخ إلى الأمام.

كما حرص المؤلف، فى المقدمة الإنجليزية، على تجنب أن يصف هذا الموقف فى شكل مباشر بأنه غير واقعى. وفضل أن يترك القارئ الغربى يصل إلى هذا المعنى بنفسه، إذ انتقل فور أن وصف مايور بالتفاؤل، إلى إبراز أن الواقعية تقتضى إلقاء نظرة فاحصة على الاتفاقات الفلسطينية - الإسرائيلية، موحيا - وليس مصرحا - بأن التفاؤل بالسلام ليس واقعيا من خلال إثارة السؤال المهم التالى : ما الذى جعل صانعى اتفاق أوسلو يعتقدون فى إمكان تحقيق السلام عبر إرجاء القضايا الصعبة؟

هذا السؤال لا يرد فى الطبعة العربية التى حوت مدخلا فى صفحة واحدة، عقب مقدمتها، ورد فيه سؤال آخر أوسع نطاقا بكثير، وهو : "لماذا كانت الحرب قريبة وظل السلام بعيدا طوال قرن من الزمان ولماذا جاء السلام - إذا كان ما جاء سلاما - فى هذه الظروف، وبهذا الشكل، وبهذه الوسائل؟ ".

ويوضح المؤلف، فى هذا المدخل، أن الإجابة عن السؤال "هى محاولة يقدمها باحترام وحب واعتزاز إلى أجيال جديدة من شباب هذه الأمة العربية وبالذات فى مصر". وهى إجابة يرفقها بكلمة اعتذار إليهم لأن "الكثير مما تحويه هذه الصفحات يصعب تقديمه إليهم باستعارة عبارة ونستون تشرشل المأثورة : "لقد كانت تلك أروع لحظات حياتنا". كان المؤلف

واضحا، إذاً، فى تحديد الجمهور الذى تستهدفه الطبعة العربية، مما يفسر وضوح موقفه النقدى فيها تجاه عملية السلام حتى لا يقع شباب الأمة العربية فى الوهم.

ففى هذه الطبعة (العربية) يبدو راغبا فى وضع خط فاصل بين رفض مصر عبد الناصر إجراء اتصالات مع إسرائيل، على الرغم من محاولات كثيرة قام بها وسطاء منذ أن قامت ثورة ١٩٥٢، وبين موقف مصر السادات الذى رأى أنه قاد العرب إلى تنازلات متتالية لم تتوقف حتى الآن.

وعلى الرغم من أن هذا التمييز واضح فى الطبعة الإنجليزية أيضا، إلا أنه لا يأخذ شكل الخط الفاصل. وعلى هذا النحو، يمكن فهم الاختلاف فى طريقة كتابة بعض الأحداث التاريخية. ومن ذلك ما دار فى لقاء ثنائى عقد بين عبد الناصر والملك حسين على هامش القمة العربية فى الخرطوم فى أغسطس ١٩٦٧ . فقد حض الرئيس المصرى الراحل العاهل الأردنى على البحث عن أية وسيلة للتفاوض مع إسرائيل، حتى إذا أدى ذلك إلى عقد اتفاقية سلام منفصلة.

فيروى المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية، أن عبد الناصر قال لحسين : "على الرغم من أننا رفضنا التفاوض مع إسرائيل إلا أن الأردن يعتبر حالة استثنائية. اذهب إلى الأمريكيين، وقبل أيديهم إذا كان هذا ضروريا، وابحث عن وسيلة للتفاوض. فأهم شىء هو استعادة الضفة الغربية وغزة قبل أن يغير

الإسرائيليون طابعها، حتى إذا اضطررت إلى عقد اتفاق سلام منفرد مع إسرائيل".

وعندما تحدث الملك حسين عن مخاطر إجراء اتصالات مع الإسرائيليين، عرض عبد الناصر أن يوفر له غطاء سياسيا إذا تسربت أنباء عنها.

ويرى المؤلف أن الرجلين اعتزما، فى هذا اللقاء، القيام بمخاطرة كبرى، لأن "التابو" - الذى يسهب فى شرح أبعاده فى مواضع أخرى من الطبعتين - كان أقوى فى ذلك الوقت من أى فترة سابقة. وهو "التابو" الذى يبدو، أكثر فى الطبعة العربية، أن السادات هو الذى كسره.

ولكن هذه الرواية التى ترد، فى الطبعة الإنجليزية، تحمل معنى أن عبد الناصر هو الذى بدأ عملية تجاوز "التابو". ويقر المؤلف بذلك - ضمنيا - فى هذه الطبعة، ليس فقط من خلال ذكر ما دار بين عبد الناصر وحسين، ولكن أيضا عبر الإشارة إلى أن الأول أعطى الثانى المبرر السياسى والأخلاقى لتجاهل روح "اللاءات الثلاثة - لا صلح ولا اعتراف ولا تفاوض مع إسرائيل"، التى التزم بها المشاركون فى قمة الخرطوم. ويوضح المؤلف أن عبد الناصر كان يشعر بأن الأردن يستطيع عقد اتفاق سلام مع إسرائيل، وهو ما لم تكن مصر قادرة عليه فى ذلك الوقت.

كما أنه يشير - ضمنيا - إلى أن مصر لم تكن فى حاجة أيضا إلى مثل هذا الاتفاق، من خلال تأكيده على أن عبد الناصر كان واثقا فى أن بلاده ستستعيد

سيناء التى فقدتها فى حرب ١٩٦٧ . ولكن كان يشعر بقلق شديد على مصير الضفة الغربية، ويدرك أن إسرائيل ستعمل على خلق حقائق جديدة على الأرض فيها . كان يخشى أن يملأ الإسرائيليون الضفة بالمستوطنات، وأن يغيروا شخصية القدس العربية فى اتجاه تهويدها .

كما يكشف المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية أيضا، أنه بناء على التفاهم الذى حصل بين عبد الناصر وحسين فى أغسطس ١٩٦٧، طار الأخير إلى نيويورك وعقد اجتماعين سريين مع وزير الخارجية الإسرائيلى وقتها أبا ايبان. كان الاجتماع الأول فى فندق "والروف استوريا"، وكان الثانى فى منزل وزير أمريكى سابق هو جوليان اميرى.

ويظهر التباين بين الطبعتين فى طريقة معالجة تطورات عملية تسوية، فيظهر فى مواضع ويختفى فى غيرها، ويبدو واضحا أحيانا وخفيا بين السطور فى أحيان أخرى، من دون أن يعنى ذلك أن هذا التباين هو السمة الغالبة. ولكن المواضع التى يظهر فيها تنطوى - عادة - على مغزى مهم، سواء من حيث تقدير المؤلف لمقتضيات معينة فى شأن مخاطبة القارئ غير العربى، أو فيما يتعلق برغبته فى توجيه رسائل معينة للقارئ العربى، وبصفة خاصة الأجيال الجديدة من الشباب، وبالذات فى مصر.

ومثلما يظهر التباين فى اختيار الوقائع والأحداث فى كل من الطبعتين، فهو يبدو أيضا فى التحليل والتفسير. وإذا كانت واقعة اللقاء الذى حصل بين

عبد الناصر وحسين، على هامش قمة الخرطوم تقدم مثالا فى شأن الوقائع، فإن تناول المؤلف للظروف التى أحاطت بمؤتمر مدريد فى عام ١٩٩١ يعتبر مثالا للتباين فى التفسير.

ففى الطبعة الإنجليزية، يفسر المؤلف التحرك الأمريكى لعقد هذا المؤتمر بأن إدارة بوش أرادت أن تسدد ديونها السياسية لكل من إسرائيل والدول العربية التى شاركت بفاعلية فى التحالف الدولى ضد العراق. فهو يرى أن واشنطن كانت مدينة لإسرائيل التى قبلت عدم التدخل فى أزمة الغزو العراقى للكويت. على الرغم من الضربات الصاروخية التى تعرضت لها.

كما كانت مدينة للسعودية ومصر وسورية بوعد قدمه بوش فى بداية الأزمة بأنه سيعمل على تحريك عملية السلام العربية - الإسرائيلية عقب انتهائها.

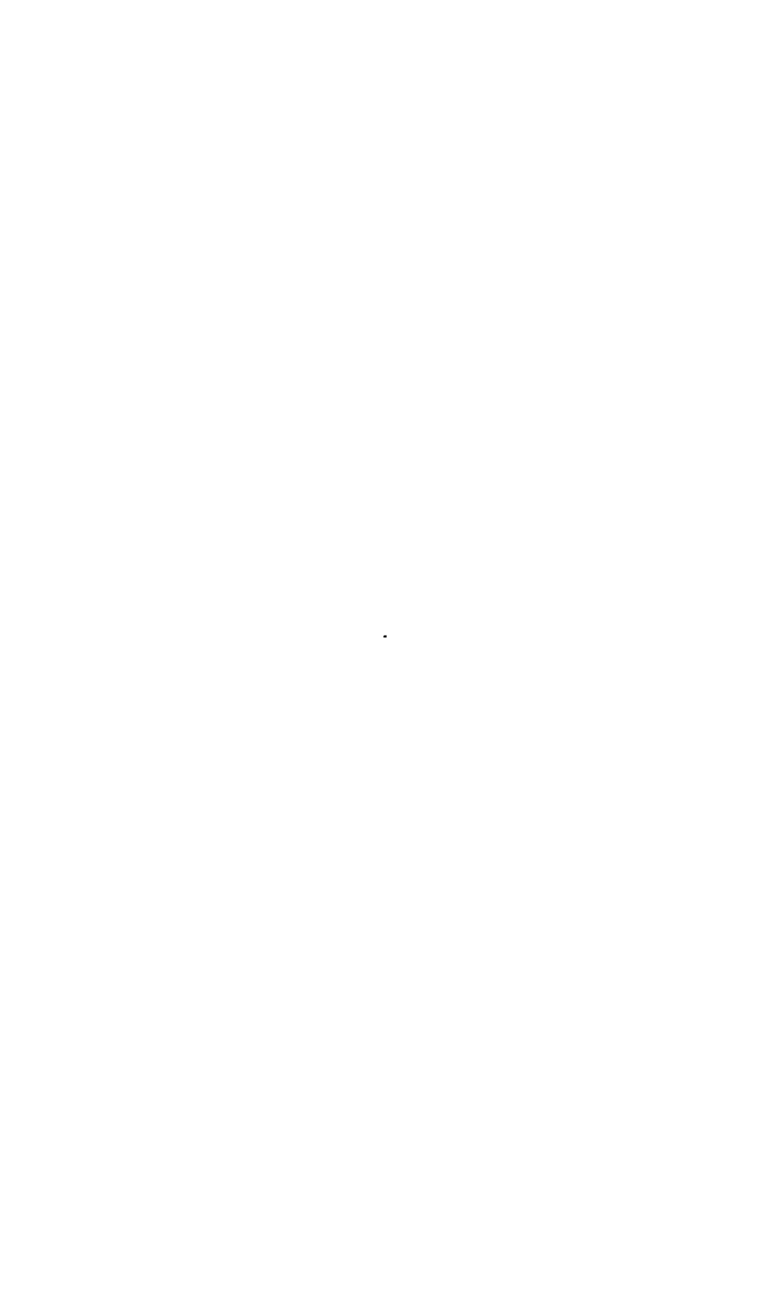
ولكن أهم ما يتضمنه تفسير المؤلف للتحرك الأمريكى، فى الطبعة الإنجليزية، هو أن الحاجة إلى تسوية الديون السياسية دفعت إدارة بوش إلى تبنى موقف أقل انجيازا لطرف واحد بالمقارنة مع ما قبل حرب الخليج الثانية. ويشير إلى خطاب بوش الشهير أمام جلسة مشتركة لمجلس الكونجرس فى يوم ٦ مارس ١٩٩١، والذى تحدث فيه عن سلام شامل يقوم على قرارى مجلس الأمن ٢٤٢ و٣٣٨، وعلى مبدأ "الأرض مقابل السلام" موضحا أن هذا المبدأ ينبغى أن يوفر الاعتراف والأمن لإسرائيل والحقوق السياسية المشروعة للفلسطينيين.

ولكن التفسير الذى يرد فى الطبعة العربية يبتعد عن تحليل دوافع إدارة بوش، فى شأن سدادالديون السياسية المترتبة على أزمة الخليج الثانية. ويركز التحليل فى هذه الطبعة على إبراز تدهو الوضع العربى، ووقوع العرب فى ما أسماه "قبضة مقادير مأساوية". وفى مقابل أن إسرائيل كانت لديها "كل الحظوظ السعيدة" عندما انتهت الأزمة كانت منظمة التحرير مستثناه من بركات عصر التسويات الكبرى"، ومن رحمة "النظام العالمى الجديد".

ونلاحظ هنا أن الطبعة العربية تخلو مما ورد فى الإنجليزية عن معارضة إدارة بوش توسيع الاستيطان الإسرائيلى : "قبل حرب الخليج، عبر بوش عن معارضة الاستيطان بالكلمات. وبعد الحرب دعم كلماته بممارسة ضغط". فيتحدث المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية، عن ربط بوش بين الاستجابة لطلب إسرائيل تقديم ضمانات لقروض قيمتها ١٠ مليارات دولار لمواجهة نفقات استيعاب المهاجرين من اليهود السوفيات. كما يشير إلى دفاع بوش عن وزير خارجيته جيمس بيكر عندما تعرض لهجوم من إسرائيل ويهود أمريكيين بسبب ما قاله أمام إحدى لجان مجلس النواب عن أن الاستيطان هو أكبر عقبة أمام السلام. ويبرز المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية أيضا، أهمية تعاطى بيكر فى ذلك الوقت مع فلسطينيين من الداخل معروفين بصلاتهم الوثيقة مع منظمة التحرير، موضحا بأنه لم يحصل أن اتخذ وزير خارجية أمريكى مثل هذه الخطوة من قبل. وقد قصد بذلك توجيه رسالة إلى القارئ الأجنبى مفادها

أنه عندما تتخذ الولايات المتحدة موقفا إيجابيا وأقل انحيازا لإسرائيل حتى إذا كان محدودا للغاية على هذا النحو يحدث قدر من التقدم. ولكن المشكلة هى أن واشنطن نادرا ما تقدم على ذلك، وإذا أقدمت لا تواصل ما بدأته. ومن المهم توضيح هذا المعنى للقارئ الأجنبى لأن القارئ العربى يعرفه جيدا.

ولا يخلو من مغزى مهم، فى هذا السياق، كلام المؤلف فى المقدمة الإنجليزية عن أن كل من يقدم على طرح الأسئلة الصعبة، (فى شأن اتفاق أوسلو وعملية السلام عموما) يخاطر بأن يوصف بأنه عدو للسلام. وهذه مشكلة يواجهها من يكتب لقارئ أجنبى لا يعرف خلفية الصراع وحقيقة إسرائيل وسياساتها.



# الفصل الثالث

# "التابو" الإسرائيلى

ليست المقدمة وحدها هى التى تدل على الفارق بين الطبعتين العربية والإنجليزية لكتاب الاستذ محمد حسنين هيكل عن المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل. ما أن يبدأ المرء فى مطالعة الطبعتين، مقارنا بينهما، حتى يتبين له أنه إزاء نصين مستقلين. ولكن يصعب القول إنهما نصان مختلفان، لأن وحدة الموضوع تجتمع بينهما.

هما، اذاً، نصان مستقلان كتبهما المؤلف بطريقتين مختلفتين، سواء من حيث التبويب أو المنهج وأسلوب التناول.

الطبعة العربية تتضمن معلومات أكثر، بحكم أنها الأكبر حجما (حوالى ١٢٣٠ صفحة، بخلاف نحو مئة صفحة من الوثائق فى نهاية الكتابين الثانى والثالث لهذه الطبعة)، مقابل ٥٥٤ صفحة للطبعة الإنجليزية.

ويتميز التحليل فى الطبعة العربية بأنه أكثر عمقا، حيث تظهر فيها رؤية المؤلف النافذة ونظرته الفلسفية لتاريخ المنطقة، أكثر من الطبعة الإنجليزية التى لجأ

فيها إلى أسلوب مباشر وإن لم يخل من لمحات فلسفية بطبيعة الحال.

ولكن يتسم الكتاب الأول فى الطبعة العربية بطابع تقليدى فى تبويبه، الذى يعتمد على أدوار شخصيات معينة منذ نهاية القرن الثامن عشر بدءا بالقائد الفرنسى نابليون بونابرت. إلا أن تداخل أدوار الشخصيات يجعل من الصعب الفصل بينها، وخاصة فى ظل تحليل عميق لا يكتفى بسرد أحداث التاريخ. ولذلك لم يكن اختيار أسماء شخصيات معينة كعناوين لثلاثين، من أصل ٣١ بندا، تضمنتها الفصول الخمسة فى الكتاب الأول، معبرا بالضرورة عن محتويات كل جزء منها. وعلى سبيل المثال فإن البند الأول فى الفصل الثالث لا صلة له بعنوانه (ماكماهون). فهذا الجزء يقدم تحليلا للمراكز المؤثرة فى القرار البريطانى مطلع القرن الماضى، ولم ترد فيه إشارة واحدة إلى السيد هنرى ماكماهون، باعتباره كان يدير من موقعه فى القاهرة السياسة البريطانية فى البحرين الأبيض والأحمر. أما دور ماكماهون الأساسى، والوعود التى أعطاها للعرب وخاصة الشريف حسين لدفعهم إلى الوقوف مع بريطانيا فى الحرب العالمية الأولى فقد ورد بعد ذلك فى البند الرابع فى الفصل الثالث تحت عنوان "الشريف حسين".

وبوجه عام، يعتبر الكتاب الأول فى الطبعة العربية استهلالا تاريخيا هو تسجيل وتفسير لتاريخ وجذور الصراع فى المنطقة، لا فقط الاتصالات السرية والعلنية التى حصلت. وهو مليء بالوثائق التى ينشر

المؤلف بعضها كاملة، ويقتبس باستفاضة من بعضها الآخر فى ثنايا الكتاب. ولذلك لا يجمعها أو يضعها، فى نهايته، بعكس ما فعل فى الكتابين الثانى والثالث فى الطبعة العربية، إذ نشر صورا لأصول أهم الوثائق التى تعرض لها.

وهنا، يظهر فارق مهم بين الطبعتين، حيث يقل اعتماد المؤلف على نصوص الوثائق فى الطبعة الإنجليزية، ويلجأ فى معظم الأحوال الى عرض مضمونها. ولا ينشر النص الكامل إلا فى حالات قليلة أهمها خطاب بلفور إلى روتشيلد فى ٢ نوفمبر ١٩١٧ (وعد بلفور).

وبرغم اختلاف التبويب بين الطبعتين، فقد ظل محكوما بتسلسل الأحداث. ولذلك تضمن الجزء الأول فى الطبعة الإنجليزية (وهى كتاب واحد) ما ورد فى الكتابين الأول والثانى بالعربية، فيما اشتمل الجزء الثانى الإنجليزى على ما حواه الكتاب الثالث بالعربية. ولكن تتميز الطبعة الإنجليزية، فى فصولها الأولى المخصصة للاستهلال التاريخى، بإجراء مقارنات بين وقائع تاريخية وأخرى معاصرة تتعلق بملابسات بعض الاتصالات العربية - الإسرائيلية فى العقود الأخيرة، وخاصة محادثات أوسلو، التى يتناولها المؤلف باستفاضة فى الكتاب الثالث بالعربية، والجزء الثانى فى الطبعة الإنجليزية. ومن أهم هذه المقارنات، التى لا ترد فى الطبعة العربية، المقارنة بين الأسلوب العربى فى التفاوض مع الإنجليز عشية الحرب العالمية الأولى، والأسلوب الفلسطينى فى التفاوض مع الإسرائيليين فى أوسلو.

ففى الاتصالات العربية التى جرت مع ماكماهون، يشير المؤلف إلى أن الشريف حسين فهم أن الإنجليز سوف يساعدون العرب على تحقيق حكم ذاتى فى منطقة الجزيرة العربية وكل المنطقة الممتدة بين البحر المتوسط والخليج "الفارسى". ويقول أن ماكماهون استثنى سورية، ولكن كلامه كان غامضا، فيما لم يكن الشريف حسين مصرا على استجلاء الغموض. ولذلك تبدو الطبعة الإنجليزية أكثر وضوحا فى تحميل العرب مسؤولية إخفاقهم فى الاستفادة من ظروف بريطانيا وحاجتها إلى مساندتهم لها فى الحرب العالمية الأولى.

كما أن النقد الذى يوجهه المؤلف للشريف حسين، فى هذا السياق، جاء أكثر حدة فى الطبعة الإنجليزية، حيث وصفه فيها بأنه كان رجلا ذا رؤية عربية محدودة وأصبح رمزا لفكرة أكبر منه.

ويلاحظ المؤلف أن ما اهتم به حسين والقوميون العرب كان هو النوايا البريطانية العامة، والمستوى الرفيع للاتصالات. ويقول إن هذا الأسلوب فى التفاوض ظل مستمرا فى معظم المفاوضات منذ ذلك الوقت، بما فيها محادثات أوسلو. فقد استند العرب فى قراراتهم إلى كلمة تصدر من شخص إلى آخر، فيما كان الإسرائيليون والغربيون أكثر اهتماما بالمعنى المحدد للكلمات. ويضيف أنه إذا أعطى وعد معين بهدف الخداع، فإن العقل الغربى يفسر ذلك بأنه فن الحكم 'Statecraft'، فيما العرب مازال لديهم اعتقاد شبه دينى فى الكلمة المكتوبة.

هذا الميل إلى المقارنة، بين ما هو تاريخى وما هو معاصر، غاب فى الكتاب الأول باللغة العربية، والذى يتميز فى المقابل - وعلى نحو يعوض غياب هذه المقارنة - برؤية فلسفية تاريخية تفتقد الطبعة الإنجليزية الجزء الأكبر منها. فقد حرص المؤلف، فى هذه الطبعة، على التبسيط فى عرض التاريخ، لأن القارئ الغربى الذى تخاطبه هذه الطبعة ليس ملما فى الغالب بهذا التاريخ، بعكس كثيرين من قراء الطبعة العربية. ولذلك جاء تناوله لتاريخ الصراع فى المنطقة. فى الطبعة الإنجليزية، فى صورة تسجيل لمحطاته الرئيسية، بحيث يشعر القارئ العربى لهذه الطبعة فى بداية جزئها الأول أنها لا تضيف له شيئا باستثناء المقارنات مع بعض التطورات المعاصرة. ولكن الأكيد أن معظم القراء غير العرب يجدون أمامهم رواية من منظور عربى لتاريخ الصراع فى المنطقة، وهى رواية متماسكة قد تدفع بعضهم إلى مراجعة نظرته إلى هذا التاريخ، خاصة وأنها مكتوبة بأسلوب موضوعى ومدعمة بأسانيد وحجج، فضلا عن أن المؤلف مهد لها بفصل استهل به الطبعة الإنجليزية وقدم فيه رؤية عامة للصراع.

هذا الفصل المعنون "حائط على العقل .. رؤية لقرن من الصراع" لا يوجد ما يناظره فى الطبعة العربية. ولكن أفكاره وعناصره الرئيسية موزعة فى ثنايا هذه الطبعة. واختار الأستاذ هيكل مدخلا لهذا الفصل يتسم بالجاذبية بالنسبة إلى القارئ الغربى، عندما بدأه بالإشارة إلى تعليق الرئيس كارتر على زيارة السادات إلى القدس فى عام ١٩٧٧، عندما قال

أنها تشبه هبوط نيل ارمسترونج على سطح القمر وتعليق كلينتون على المصافحة بين رابين وعرفات فى البيت الأبيض فى عام ١٩٩٣ عندما قارنها بانهيار حائط برلين.

ويصف المؤلف المقارنتين بأنهما ليستا صحيحتين تماما، ولكن فى كل منهما جانب من الحقيقة. ومن خلال رأيه فى المقارنتين، أوضح الأستاذ هيكل موقفه من البداية وهو أن ما رآه كارتر وكلينتون - كل فى حالته - على أنه بداية لتقارب عربى - إسرائيلى لا أساس له بعد 'Premature'. وحرص المؤلف على استخدام هذا التعبير، ربما لإدراكه أن قارىء الطبعة الإنجليزية قد لا يستوعب فكرة أن مثل هذا التقارب هو مجرد وهم. والمؤلف معنى، أساسا، فى هذا الفصل بأن يشرح للقارىء غير العربى ظروف وكيفية ظهور موقف الرفض العربى - تاريخيا - لأى تفاوض مع إسرائيل، مما أدى إلى أن تكون السرية هى طابع الاتصالات لفترة طويلة. فإذا كان العرب غير قادرين على هزيمة إسرائيل عسكريا، فإن الرفض يوفر القوة الأخلاقية لموقفهم إلى أن يحدث تغير فى ميزان القوى. وهو موقف أطلق عليه استراتيجية نفى الآخر 'Ostracization' ، التى وجدت قبولا لدى الجماهير العربية المحبطة بعد ما حصل فى حرب ١٩٤٨ - ١٩٤٩، وأصبحت سلوانا لصدمة هذه الجماهير وعجزها. وهى استراتيجية تمسكت بها الشعوب العربية، وارتبطت مشاعرها بها، مما جعل أمر الاتصالات مع إسرائيل صعبا وخطرا، ومن هنا كان لزاما أن تجرى أى اتصالات فى إطار من السرية.

ويدلل المؤلف على ذلك بأن قادة عرب دفعوا حياتهم ثمنا لإقدامهم على اتصالات سرية أو علنية مع إسرائيل، منذ الملك عبد الله عام ١٩٥١ وحتى بشير الجميل عام ١٩٨٢ . كما يشير أيضا إلى رؤساء حكومات عرب قتلوا أيضا لأسباب تتعلق بـ "التابو" الذى يرجىء الحديث عنه فى الطبعة الإنجليزية إلى السطر الأخير فى الفصل الأول، فيما هو يبدأ الكتاب الأول بالعربية بفصل يستهله بجزء يحمل عنوان "مقدسات : محرمات". وهو يقصد رؤساء الحكومات الذين راحوا ضحية "التابو" بغض النظر عما إذا كانوا انتهكوه بالفعل، مثل محمود فهمى النقراشى المصرى الذى اغتيل عام ١٩٤٨، ورياض الصلح اللبنانى الذى قتل فى عام ١٩٥١ برغم أن كل ما صدر عنه كان مجرد كلام عن التفاوض مع إسرائيل، ثم وصفى التل الأردنى الذى اغتيل عام ١٩٧١ .

وهكذا، كان ثمن أى اتصال، أو شبه اتصال، مع إسرائيل فادحا الأمر الذى يفسر - فى رأى المؤلف - حرص السادات قبل زيارته إلى القدس عام ١٩٧٧ على أن يتأكد من أن إسرائيل كانت على استعداد لأن تقدم له شيئا، عبر إرسال مبعوثه حسن التهامى لمقابلة وزير خارجية إسرائيل موشى ديان فى الرباط.

وتخلو الطبعة العربية - من الصورة التى رسمها المؤلف بقلمه للتهامى فى الطبعة الإنجليزية، منتقدا بشكل ضمنى اختيار السادات له فى مهمة دقيقة كانت تمثل أول اتصال مصرى مباشر مع مسؤول إسرائيلى رفيع.

كتب المؤلف عن التهامى أنه أحد الضباط الأحرار، وكان متورطا مع عبد الناصر فى محاولة فاشلة لقتل أحد رجال الملك فاروق قبل ثورة ١٩٥٢ (وهذه معلومة جديدة). ووصفه بأنه ذو شخصية قوية، ومظهر أخاذ، أزرق العينين، وله لحية فضية. عمل سفيرا لمصر لدى النمسا، ومثل بلاده فى الوكالة الدولية للطاقة الذرية.

ولكن يرى المؤلف أنه برغم هذه الخلفية، كان اختيار التهامى لمهمة دقيقة من هذا النوع موضع تساؤل. ويرى أنه خلال عمله على رأس السفارة المصرية فى فيينا، أفاد موظفون فيها بأن السفير لم يكن على ما يرام. كان يتناول الطعام مع زملاء له، فإذا به يقف فجأة، ويقول "ما هذا السرور، إنه لشرف عظيم" فيسأله الحاضرون : من؟، فيجيب أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر به. ويقول المؤلف إنه بعد هذه الواقعة، أعيد التهامى إلى القاهرة. ويضيف أنه كان هناك اعتقاد فى أنه تأثر لوجوده لفترة طويلة في خارج مصر، إلى جانب بعض المشاكل الشخصية. وكان ينقل عنه حسب المؤلف، أن "سيدنا الخضر" يزوره.

ولا تحوى الطبعة العربية، من هذه الصورة، سوى إشارة إلى ما أسماه المؤلف "الحالة النفسية لحسن التهامى" ضمن روايته لقصة مفاوضات كامب ديفيد، مشيرا إلى أن وزير الدولة المصرى للشؤون الخارجية وقتها بطرس غالى كان مشغولا هناك بحالة التهامى.

ويروى المؤلف أن غالى سمع التهامى يتحدث

همسا مع "طيف مر بجواره" وحينما سأله عرف منه أنه يرد تحية "سيدنا الخضر عليه السلام" . ويضيف أنه عندما تكررت زيارات الطيف وزادت عبارات التحية والسلام، كان تعليق بطرس غالى هو أن "حالة التهامى تأخرت وأنه أصبح يخاف على نفسه" .

ولكن هيكل لم يذكر أهم ما رواه بطرس غالى عن "طرائف" حسن التهامى فى كامب ديفيد وهو أنه حاول اقناعه بالتخلى عن ديانته المسيحية واعتناق الإسلام. فقد حاول التهامى، على عهدة د. غالى، أن يشرح له فى جلسة غذاء أسس الشريعة الإسلامية. فأوضح غالى له أنه درس الشريعة لمدة أربع سنوات فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة وكتب بعض الدراسات عن الفكر السياسى الإسلامى. وفوجئ التهامى بأن غالى يذكر آيات من القرآن الكريم وعندئذ طلب إليه أن يتحول إلى الإسلام. وحسب رواية د. غالى أصر التهامى على أن يتم هذا التحول خلال مؤتمر كامب ديفيد معتبرا أنه إذا حدث ذلك ستكون له قيمة رمزية كبرى بالنسبة إلى مستقبل الشرق الأوسط.

ومن أطرف ما رواه د. غالى فى هذا الشأن هو تعليق السادات على محاولة التهامى اقناعه بالتحول إلى الإسلام. فيقول أنه فى ظهر ١٢ سبتمبر ١٩٧٨ استقبل السادات فى غرفته أعضاء الوفد المصرى. وكانت الأجواء متوترة بين السادات ووزير خارجيته حينئذ ابراهيم كامل. وحاول غالى تلطيف الأجواء وأخبر السادات بأن التهامى يريده أن يعتنق الإسلام. فنظر السادات إلى التهامى كأنه يتسلى وقال له : لا

تستهين ببطرس يا حسن لأنك قد تتحول إلى المسيحية قبل أن يتحول هو إلى الإسلام. ويشير غالى إلى أن كلام السادات الذى كان يمزح أغضب التهامى.

ويرى هيكل أن حرص السادات على إرسال التهامى لمقابلة ديان أولا يؤكد أنه كان على وعى بأن ثمن الاتصال مع الإسرائيليين سيكون فادحا إن لم يكونوا على استعداد للالتزام بالانسحاب. وهنا كان المؤلف مدفوعا لأن يطرح تفسيرا مبكرا لحالة السادات، التى يتناولها تفصيلا بعد ذلك ليرد على سؤال ربما توقع أنه سيرد لدى قارىء الطبعة الإنجليزية التى تبدأ بتأكيد لا لبس فيه على الثمن الفادح لأى اتصال مع إسرائيل. وهو يدرك أن هذا القارىء يعرف أن السادات لقى استقبالا حافلا من الشعب المصرى لدى عودته إلى القاهرة من القدس يوم ١١ نوفمبر ١٩٧٧.

كما أن المؤلف يرى، فى الوقت نفسه، أن السادات وقع تحت تأثير انطباع خاطىء بأن إسرائيل مستعدة للإنسحاب من الأراضى العربية فى مقابل السلام. ولذلك فهو يصر فى الطبعة الإنجليزية على أن السادات دفع الثمن الفادح نفسه، فيشير إلى أن الحكم عليه جاء بعد خمس سنوات (الصحيح ٤ سنوات لأن زيارة القدس كانت فى نوفمبر ١٩٧٧ واغتيال السادات كان فى ١٩٨١) على يد الأصوليين.

ومن أهم ما جاء فى الطبعة الإنجليزية قوله بشكل صريح، لا يرد فى الطبعة العربية حتى عندما تناول

مفاوضات السادات مع الإسرائيليين تفصيلا فى الكتاب الثانى، أن السادات كان ضحية لكيسنجر ثم كارتر فى سعيهما إلى تحييد مصر باعتبارها مصدر الخطر الأول على إسرائيل. والواقعة الوحيدة التى يرويها مرتين فى الطبعة الإنجليزية هى لقاء السادات مع كارتر فى البيت الأبيض فى ربيع ١٩٧٧, فقد وردت الواقعة فى الفصل الأول، ثم فى الفصل الرابع عشر فى الجزء الأول من هذه الطبعة. ويرويها المؤلف فى الفصل الأول لإظهار المقارنة بين موقف السادات فى هذا اللقاء عندما قال أنه لا يتصور، سلاما كاملا وعلاقات طبيعية مع إسرائيل فى حياته، وبين ما أقدم عليه فى العام التالى (١٩٧٨) فى كامب ديفيد. ثم يعود لرواية الواقعة فى الفصل الرابع عشر ضمن تفاصيل الاتصالات التى سبقت زيارة السادات إلى القدس. ولكن تاريخ الواقعة الذى ورد فى الفصل الرابع عشر (٤ أبريل ١٩٧٧) أدق من التاريخ الذى أشار إليه فى الفصل الأول (مارس ١٩٧٧).

ولكن المهم هنا هو أن الأستاذ هيكل أبرز حرص السادات على ربط التطبيع مع إسرائيل بتحقيق سلام شامل. فقد أشار فى الفصل الأول إلى أن السادات لم يتصور إمكان تطبيع العلاقات مع إسرائيل فى حياته. وقال فى الفصل الرابع عشر أن السادات أبلغ كارتر أنه إذا تم التوصل إلى حل شامل، فإن مصر ستكون مستعدة لإقامة علاقات طبيعية مع إسرائيل.

كما روت فى الطبعة العربية (فى الكتاب الثانى) أن السادات رد على سؤال كارتر عن الموعد الذى يمكن فيه رفع المقاطعة، بأنه يمكن تحقيق ذلك فى أجواء السلام.

وعندما سأل كارتر : متى تسود بين الطرفين علاقات جوار طبيعية؟ أجاب السادات بأن هذا يمكن أن يتحقق بعد سنوات إذا حصل تقدم ملموس. وعاد كارتر، وفق الطبعة العربية أيضا، يسأل عن إمكان قيام علاقات ديبلوماسية وتبادل السفراء. وهنا يذكر المؤلف أن كارتر سجل فى مذكراته بالحرف الواحد قول السادات : ليس فى حياتى . Not in my Life .

ويقارن المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية دون العربية، بين السادات وعرفات. ويرى أن خطوة السادات (زيارة القدس) كانت مثيرة للخيال، ولكنها عبرت عن نفاذ صبره. وإذا كان اغتيل فى النهاية، فقد تعرض عرفات للموت أيضا ولكن لأسباب مختلفة. ويفسر المؤلف ذلك بأن التزام عرفات بقضية فلسطين كان فوق المناقشة، حتى إذا كان الجانب السياسى فى تكوينه تغلب على الجانب الآخر المتعلق بالنضال من أجل التحرر. ويرى المؤلف أن عرفات كان يواجه خطر أن يغتاله جهاز الاستخبارات الإسرائيلى (موساد) قبل عام ١٩٨٨، وهو العام الذى دفع فيه عرفات المجلس الوطنى الفلسطينى إلى قبول تغيير كبير فى أهداف منظمة التحرير، مما فتح الباب لاتصالات مع الولايات المتحدة ثم إسرائيل. وبعد ذلك بات عرفات يواجه خطر أن يغتاله متشددون فلسطينيون. ويشير المؤلف إلى أن منظمة التحرير ظلت ترفض اتفاق كامب ديفيد لأكثر من عقد، وأن عرفات أبلغ مبارك فى ربيع عام ١٩٨٨ أنه يفضل قطع يده حتى لا يوقع على القبول بالقرار ٢٤٢ . ولكنه أعلن، فى كانون الأول (ديسمبر) من العام نفسه، قبول هذا القرار فى خطاب أمام اجتماع خاص للجمعية العامة للأمم

المتحدة عقد فى جنيف، لأن وزير الخارجية الأمريكى وقتها جورج شولتز رفض إعطاءه تأشيرة دخول ليتحدث أمام الجمعية فى نيويورك.

ومن أهم ما يثيره المؤلف أن الحاجة إلى السرية فى أوسلو لم تكن راجعة إلى الخوف من تعرض المفاوضين الفلسطينيين لخطر الاغتيال، برغم أن هذا الخطر ظل قائما، بقدر ما كانت السرية ضرورة ليسهل على منظمة التحرير التراجع عن مواقف اتخذها مفاوضوها فى المفاوضات الرسمية فى واشنطن. ووصف اعلان مبادىء أوسلو بأنه أسوأ من اتفاق كامب ديفيد الذى أدانته منظمة التحرير فى عام ١٩٧٨.

ومثلما كان عليه أن يفسر مبكرا لقارىء الطبعة الإنجليزية موقف المصريين تجاه زيارة السادات إلى القدس، فقد اهتم أيضا بتفسير قبول غالبية الفلسطينيين اتفاق أوسلو من منظور حاجتهم إلى حياة أكثر هدوءا وأمنا. ولكنه يدعو، فى الوقت نفسه، إلى تأمل مغزى قبول كثيرين منهم - ضمنيا - عمليات حركة "حماس" ضد الإسرائيليين، مشددا على أن هناك شيئا غير عادى ورثه الباقون من حرب ٤٨-١٩٤٩ إلى أبنائهم وأحفادهم : شىء ما يجد جذوره فى فكرة رفض الآخر. وفى فكرة يقول إنها تعبير عن غضب الذين طردوا من أرضهم وتم نزع ملكياتهم وعن الإهانة التى يشعر بها المهزومون، وعن رفض من يتعرضون للظلم والقمع.

ويوضح أن هناك كلمة واحدة فى اللغة الإنجليزية

تقترب من التعبير عن هذا المعنى، وهى كلمة تابو 'Tappo' ، التى يجعلها عنوانا للفصل الثانى فى الجزء الأول فى الطبعة الإنجليزية. وهو الفصل الذى يناظر أول بند فى الفصل الأول فى الكتاب الأول باللغة العربية، والذى جاء عنوانه "مقدسات : محرمات"، ويوضح، فى هذا الكتاب، أن اللغة العربية لم تنحت كلمة لوصف هذه "المقدسات" .. المحرمات" تتسع للدلالات التى تحملها كلمة "تابو" الإنجليزية.

وبينما يتناول، فى الطبعة العربية، كيف وصل رفض العرب لإسرائيل إلى حد التحريم باعتباره أمرا طبيعيا (فى حياة كل جماعة بشرية تنشأ وتترسخ بالطبيعة والمعايشة ومطالب الأمان المادى والنفسى محرمات يمتنع الناس عن مقاربتها) يجد لزاما أن يقنع قارىء الطبعة الإنجليزية بمبررات هذا الرفض الذى وصل إلى حد أن أصبحت إسرائيل شيطانا فى الإدراك العربى.

وهو يسعى إلى ذلك بمنطق قوى وعبر مجابهة موضوعية، من خلال الإجابة على سؤال طالما طرحه الإسرائيليون واليهود بصيغة أو بأخرى فى مجال استمالة الرأى العام الغربى، وهو : لماذا يبدو بلد فى حجم ماساشوستس أو ويلز، وسكانه أقل من سكان النمسا أو هونج كونج ،مصدر تهديد بهذا القدر لعالم عربى أوسع ساحة وأكثر سكانا من الولايات المتحدة الأمريكية بكاملها؟

ويشير إلى أن رابين طرح السؤال من المنظور الإسرائيلى فى العام ١٩٩٣، فى صيغة : إذا كان لدى

العرب ٢١ دولة مستقلة، فهل يستكثرون على اليهود دولة واحدة؟. ويرد الأستاذ هيكل بأن صياغة السؤال على هذا النحو تخفى وتتجاهل أهمية قضية فلسطين، لأن الفلسطينيين هم الذين فقدوا أرضهم كثمن للوطن القومى لليهود، ولأن فلسطين هى التى اختفت من على الخريطة.

ويوضح للقارىء غير العربى أن فهم مغزى استمرار رفض العرب لإسرائيل زمنا طويلا يحتاج إلى إلقاء نظرة عامة على الصراع، الذى استمر لمدة قرن.

وهو، هنا، يقدم مرافعة قوية عن قضية فلسطين منذ أواخر القرن الماضى، عندما كان اليهود أقلية صغيرة، إلى أن تم طرد معظم العرب منها فى ٤٨ - ١٩٤٩، الأمر الذى خلق مرارة أكبر من كل المواجهات العربية - الإسرائيلية الست التالية : فى أعوام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و ٦٨-١٩٧٠ حرب الاستنزاف) و ١٩٧٣ و ١٩٨٢ و ٨٧-١٩٩٢ (الانتفاضة الفلسطينية).

ويشرح لقارىء الطبعة الإنجليزية كيف أن الـ "تابو" فى العقل العربى لم يكن وليد بؤس طرد وترحيل الفلسطينيين فقط، موضحا أن هذا البؤس أيقظ الـ "تابو" الذى تكون من جراء عداوات تراكمت فى الذاكرة المجمعة على مدى ثلاثة آلاف عام شكلت جذور هذا الـ "تابو"، منذ أن انحدر العرب واليهود من سيدنا إبراهيم.

هذا النوع من التفسير الذى يخاطب العقل الغربى، فى الطبعة الإنجليزية، يقابله فى الطبعة العربية تفسير آخر يبدو أن المؤلف قصد به الرد - ضمنيا -

على العرب المؤيدين لعملية السلام الجارية، والذين يستندون في موقفهم الى عدم وجود محرمات دائمة.
وهو يبدأ باعتراف بأن موقف الرفض العربى تجاوز حدود المعقول فى بعض الأحيان، ولكن لم يكن ناشئا عن جنون أو وهم أو جنوح، لأن الأمة العربية كانت سواء فى اتخاذها هذا الموقف، ويصعب تصور أمة بأسرها يطيح بها الجنون، أو تستسلم لوسواس الوهم لمدة مئة عام، كما كانت هناك غالبية فى العالم تتفهم وتؤيد موقف العرب فى رفض أمر واقع يراد فرضه عليهم.

وهو يورد هنا، فى الطبعة العربية، معلومات تفصيلية عن حجم الكلفة التى تحملها العرب كدليل على أن الأمة كانت مقدرة لما تفعله، وإلا ما كان هناك مبرر لهذه التضحيات المتواصلة التى بذلتها دفاعا عن النفس.

وهو يورد المعلومات نفسها، فى الطبعة الإنجليزية، فى سياق إقناع قارئها بمبررات استمرار الـ "تابو" فى العقل العربى منبها إلى أن البؤس الإنسانى لا يمكن قياسه بالأرقام.

وتتضمن هذه المعلومات خسائر وتضحيات الفلسطينيين، ومصر باعتبارها "أكبر بلد عربى" ولبنان باعتباره "أصغر بلد عربى".

وفيما يشير فى الطبعة العربية إلى أن هناك كلفة كبيرة أيضا وقعت على بلاد عربية أخرى مثل سورية والعراق، ولكن لا تتوفر أرقام دقيقة عنها، تخلو الطبعة الإنجليزية من هذه الإشارة.

# الفصل الرابع

# شخصيات وأحداث

فيما عدا فصل فى الجزء الأول باللغة الإنجليزية، وجزء من فصل فى الكتاب الأول بالعربية، يتناول كل منهما كيف تحولت إسرائيل إلى "تابو" فى العقل العربى، ويحملان عنوانين متقاربين، تختلف طريقة المؤلف فى تناول تاريخ الصراع فى المنطقة.

فاعتبارا من البند الثانى فى الفصل الأول، تصبح عناوين الكتاب الأول باللغة العربية لشخصيات تاريخية مهمة، فيما تم تبويب الطبعة الإنجليزية وفق عناوين موضوعية تصف مراحل تاريخية متتالية مثل "الخداع والتآمر والخيانة" و"همسات الجيران" و"ضياع فلسطين". ومع ذلك يحتفظ المؤلف بوحدة السياق فى الطبعتين على نحو لا يستطيعه إلا صانع ماهر شديد البراعة. وهويجمع أهم ما يتعلق بشخصية معينة، فيما هو موزع على فصول عدة فى الطبعة الإنجليزية، تحت العنوان الذى يحمل اسم هذه الشخصية فى الطبعة العربية.

ومن الطبيعى أن يحول دون ذلك، فى حالات عدة، تداخل أدوار الشخصيات من ناحية، واستمرار بعض هذه الشخصيات على مسرح الأحداث لفترة طويلة على نحو يصعب معه جمع كل ما فعلته شخصية

معينة تحت العنوان الذى يحمل اسمها دون اخلال بمقتضيات التسلسل التاريخى، الذى يحافظ عليه المؤلف برغم أنه لم يتخذه أساسا للتبويب فى الكتاب الأول بالعربية.

وأهم ما تختلف فيه الطبعتان، فيما يتعلق بتاريخ الصراع والاتصالات حتى ثورة ١٩٥٢ فى مصر، هو أن الطبعة العربية تتضمن تفاصيل أكثر. فالكتاب الأول المخصص لهذا التاريخ، فى هذه الطبعة، يقع فى ٣٠٦ صفحات مقابل ٨٧ صفحة فقط فى الطبعة الإنجليزية. كما يجد المؤلف فى الطبعة العربية، فرصة للتوسع فى معالجة الشخصيات التى يتناول أدوارها، بحكم التبويب الذى يعتمده فيها، أكثر مما أتيح له فى الطبعة الإنجليزية المقسمة إلى مراحل تاريخية. ومع ذلك تحوى هذه الطبعة تفاصيل أكثر من الطبعة العربية فى بعض الوقائع كما سيتضح. كما يوجه المؤلف من خلالها رسائل ضمنية مهمة إلى القارئ الغربى.

فبالنسبة إلى نابليون بونابرت، اكتفى المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية بعجالة عن حملته على مصر عام ١٧٩٨ وسعيه إلى وضع البحر الأحمر تحت السيطرة الفرنسية موضحا أن محاولته قطع طريق المواصلات البريطانية هو الذى دفعه إلى لعب الورقة اليهودية، ودعوة اليهود للعودة إلى الأرض المقدسة.

أما فى الطبعة العربية، فقد حلل موقع نابليون فى الفكر الاستراتيجى الأوروبى فى مطلع القرن الماضى، ودوره فى التـــوليف بين أهم ظواهر هذا القـــرن

(الوطنية، والتسابق الاستعماري، والمسألة الشرقية، والمسألة اليهودية)، ووضعها في خدمة استراتيجية السياسة. ويركز على رؤية نابليون للمسألة اليهودية في هذا السياق، وينشر نص ندائه إلى يهود العالم، فيما اكتفى بإشارة سريعة إلى هذا النداء في الطبعة الإنجليزية.

ولكن فيما يتعلق ببعض الشخصيات العربية، يضطر المؤلف إلى تعريف قارئ هذه الطبعة بهم، مثل محمد على الجندي المقدوني الذي أرسلته الدولة العثمانية للمساعدة في إخراج الفرنسيين من مصر، فأصبح حاكما لها، ثم قام باحتلال سورية وفلسطين بعد أن هزم قوات السلطان العثماني، وأسس امبراطورية تمتد من الحدود الجنوبية لتركيا إلى الخرطوم، قبل أن ترغمه الدول الأوروبية على التراجع. وهي معلومات لا يجد حاجة إلى تذكير قارئ الطبعة العربية بها. وبرغم أنه يخصص جزءا في الفصل الأول في هذه الطبعة (الكتاب الأول) تحت عنوان "محمد على" فقد ركز المؤلف في هذا الجزء على السياسة البريطانية تجاه مصر في أوائل القرن الماضي أكثر مما تحدث عن محمد على نفسه.

وكان يمهد بذلك للحديث عن رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون الذي يعطيه اهتماما خاصا في الفصلين الثاني والثالث في الطبعة الإنجليزية ولكن ليس بالتفصيل الذي تتميز به الطبعة العربية. فتتسع هذه الطبعة لتفاصيل مهمة عن دور بالمرستون في وضع أسس السياسة البريطانية المؤيدة لهجرة اليهود إلى فلسطين في وقت مبكر ومحاولاته إقناع السلطان

العثمانى بالسماح بهذه الهجرة من خلال رسالتين بعث بهما إلى السفير البريطانى فى اسطنبول فى أغسطس وسبتمبر ١٨٤٠ يدعوه إلى السعى لإقناع السلطان بذلك. ولكن الملاحظ أنه لم يتطرق فى الطبعة العربية إلى رسالة بالمرستون إلى السلطان مباشرة فى فبراير ١٨٤١، والتى أشار فى الطبعة الإنجليزية إلى أنها تضمنت إغراءات اقتصادية حاول من خلالها حض السلطان على السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين. ولكن أهم ما ورد فيها على الإطلاق هو أن بالمرستون اقترح على السلطان تحريك السكان المحليين (الفلسطينيين) إلى شمال العراق، وتوقع أن يرحبوا بذلك لأن الأراضى الزراعية هناك أكثر خصوبة.

ولكن يشير المؤلف فى الطبعة العربية إلى فكرة تهجير الفلسطينيين إلى العراق باعتبارها وردت فى نداء وجهه ادوارد مين فورد وهو دبلوماسى إنجليزى ، تحت إسم "نداء بالنيابة عن اليهود لإنشاء كومنولث بريطانى فى الشام" ، إذ تضمن هذا النداء أنه "يمكن اقناع الحكومة العثمانية بتهجير كل السكان المحمديين وتوطينهم فى المناطق الشاسعة فى شمال العراق" .

ويتوقف المؤلف عند هذه الفكرة فى معرض اشارته إليها فى الطبعة الإنجليزية، ملاحظا أنها طرحت مرة أخرى فى عام ١٩٩٤، حيث ألمح الأمريكيون إلى أنهم قد يقبلون رفع الحصار على العراق إذا سمح لستمئة ألف لاجئ فلسطينى يعيشون فى لبنان بالإقامة فى شمال العراق، بهدف الحد من

الضغوط التى تتعرض لها إسرائيل فى شأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

ويعلق المؤلف على هذه الرواية، التى لا يوضح مصدرها، بأنه مثلما حصل فى عام ١٨٤١، فإن رغبة الفلسطينيين الذين يريدون العيش فى أراضيهم لا تؤخذ فى الاعتبار.

ولا يرد هذا التعليق، ولا الرواية المتعلقة بالموقف الأمريكى فى عام ١٩٩٤، فى الطبعة العربية التى يكتفى المؤلف فيها بإشارة سريعة إلى تجدد الحديث عن تهجير الفلسطينيين إلى شمال العراق بعد حرب الخليج الثانية. فقد أعطى اهتماما أكبر لهذا الموضوع فى الطبعة الإنجليزية أملا فى مخاطبة الضمير الغربى برسالة مفادها أنه كفى تآمرا على الشعب الفلسطينى الذى ذاق الأمرين وتعرض لأشد الويلات ولم يعد يتحمل المزيد من التهجير.

ويوضح المؤلف فى الطبعتين ما تعرض له الفلسطينيون من معاملة سيئة منذ أول هجرة يهودية فى ثمانينات القرن الماضى. ويدلل على ذلك بما كتبه كاتب يهودى كان يوقع باسم "آحاد هاعام"، وهى كلمة عبرية تعنى واحدا من الناس. ولكنه لا يشير فى الطبعة الإنجليزية إلى أن هذا الكاتب وهو هاشر زفى جينزبرج، وقع باسم "آحاد هاعام". ويصف فى هذه الطبعة، ما كتبه جينزبرج بأنه كان تعبيرا عن شعوره بالخجل من تعاطى اليهود مع العرب بروح العداء، فيما يصف فى الطبعة العربية ما كتبه هذا الكاتب اليهودى بأنه كان "تحذيرا مبكرا من شكل ما هو قادم".

وبرغم أن المؤلف يبرز، فى الطبعة العربية، دور موسى مونتيفورى اليهودى البريطانى الذى ساهم فى إقامة بعض المؤسسات اليهودية فى فلسطين، تخلو هذه الطبعة من معلومات مهمة وردت فى الطبعة الإنجليزية التى توضح أن منتيفورى فشل فى اقناع محمد على بمشروع لبناء ٢٠ قرية يهودية فى سيناء قرب العريش. فلا تتضمن الطبعة العربية سوى إشارة إلى أن منتيفورى يتحدث إلى محمد على فى موضوع هجرة اليهود إلى فلسطين، وأن الأخير أبلغه أن القرار فى يد الخليفة العثمانى وحده.

وفى المقابل، تخلو الطبعة الإنجليزية من إشارة إلى دور جلادستون، الذى تناوب مع دزرائيلى رئاسة الحكومة البريطانية فى بداية النصف الثانى من القرن الماضى، فيما تتضمن الطبعة العربية مقارنة بينهما تخلص إلى أن كلا منهما كان استعماريا من الدرجة الأولى. ولكن فى الطبعة العربية يبدى المؤلف اهتماما أكبر بدور دزرائيلى الذى كان أول وآخر يهودى يتولى رئاسة الحكومة فى بريطانيا.

وكان طبيعيا أن يهتم المؤلف، فى الطبعتين، بدور تيودور هرتزل، الذى يصفه فى الإنجليزية بأنه "مؤسس الصهيونية الحديثة"، وفى العربية بأنه "رجل قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى الحركة الصهيونية".

ولكن تخلوا الطبعة العربية من ما أورده المؤلف فى الطبعة الإنجليزية عن تأثر هرتزل بقضية محاكمة الضابط اليهودى الفرنسى الفريد دريفوس، حيث اعتبر أن "قضية دريفوس" هى التى اقنعت هرتزيل

بأن الحل الوحيد لمشكلة العداء للسامية فى أوروبا هو السعى إلى اقامة دولة قومية يهودية.

كما تخلو الطبعة العربية من ملاحظة مهمة وردت فى الإنجليزية عن تأثر هرتزل، أيضا، بالفيلسوف الألمانى الكبير هيجل، وبخاصة اعتقاده أن الهوية القومية ليست مسألة اختيار، وإنما رابطة بيولوجية بين الفرد والمجتمع والأرض. ويصل المؤلف إلى هذا الاستنتاج من خلال قراءته لموقف هرتزل وتكييفه للعلاقة بين اليهود وفلسطين، وإصراره على أن فلسطين تحتل مكانا فريدا لا مثيل له فى العقل اليهودى.

ولعل الاختلاف الأهم بين الطبعتين، فيما يتعلق بهرتزل، هو تقييم المؤلف لموقفه فى شأن القدس.

فقد تحدث فى الطبعتين، عن تعهد هرتزل - فى لقائه مع محمود جاويد ابن الصدر الأعظم خليل رفعت باشا - أن تبقى القدس خارج حدود الدولة اليهودية إذا قامت، لأن الأماكن المقدسة يجب أن تظل مفتوحة للجميع. ولكن تنفرد الطبعة الإنجليزية بتقييم المؤلف لهذا الموقف، إذ يرى أن هرتزل كان أكثر اعتدالا من القادة الصهيونيين الذين جاءوا بعده، مشيرا إلى أن تعهد هرتزل فى شأن القدس صدر قبل نصف قرن من قرار الأمم المتحدة بتدويلها وتقسيم بقية فلسطين إلى دولتين احداهما عربية والأخرى يهودية.

وهنا يطرح المؤلف تصورا، لا يرد أيضا فى الطبعة

العربية، مفاده أنه لو كانت رؤية هرتزل وقرار الأمم المتحدة لقيا احتراما، لأمكن تجنب كثير من المعاناة. ويربط المؤلف تصوره هذا بتأكيد على أن الطموحات اليهودية لم تكن أبدا ساكنة وإنما كانت متحركة فى اتجاه المزيد من التوسع.

ولا يوضح المؤلف إلى أى مدى كان موقف هرتزيل من القدس كفيلا، لو تحقق، بالتأثير على مجرى الصراع. فهو يكتفى بالإشارة إلى أنه كان سيؤدى إلى تجنب كثير من المعاناة، من دون تحديد ما إذا كان سيقلل حجم الرفض العربى لإسرائيل.

ولكن طريقة تناوله لدور هرتزل ربما توحى لقارئ الطبعة الإنجليزية باجابة ايجابية على هذا السؤال. فهو يشير، فى هذه الطبعة وحدها أيضا، إلى أن فى السنوات الأولى من القرن الحالى لم يكن التوتر العربى اليهودى وصل إلى الحد الذى يمنع الاحساس بوجود هدف مشترك بين بناة القومية Nation Builders على الجانبين. ويتحدث عن تعاطف هرتزل مع الوطنيين العرب الذين كانوا يناضلون ضد الإنجليز، وعن الاتصالات التى أجراها مع مصطفى كامل. وهو يشير فى الطبعة العربية، إلى هذه الاتصالات، ولكن يستبعد ما ورد فى الإنجليزية عن وجود احساس بهدف مشترك، فهو يريد أن يكسب تعاطف القارئ الأجنبى مع قضيتنا المركزية ولم يرغب أن يطرح للقارئ العربى قضية يمكن أن يساء فهمها أو تثير التباسا.

وعندما يتعرض المؤلف لمشروع هرتزل إقامة

مستوطنة كبيرة فى سيناء تستأجرها المنظمة الصهيونية العالمية لمدة ٩٩ عاما، ومحاولة إقناع الخديو عباس حلمى الثانى بالمشروع فى عام ١٩٠٣، يقول فى الطبعة العربية " لا أظن أنه كان لدى الخديو اعتراض كبير". فيما كانت الصياغة فى الإنجليزية هى أن " الخديو أيد المشروع". ويوضح فى الطبعتين، أن المعتمد البريطانى لدى مصر اللورد كرومر هو الذى رفض المشروع، بسبب ما تضمنه من إمداد المستوطنة بالمياه من نهر النيل.

فقد رأى المهندسون الإنجليز أنه من الصعب توفير كمية المياه المطلوبة لهذا المشروع. وتخلو الطبعة الإنجليزية من تفسير هذا الموقف البريطانى حيث يوضح المؤلف فى الطبعة العربية أن الإنجليز خشوا أن يؤثر نقص المياه فى مصر على زراعة القطن الذى كانت مصانع لانكشاير فى انجلترا تعتمد عليه. كما أن كرومر حرص على عدم استفزاز المشاعر الوطنية والدينية فى مصر فى لحظة كانت تشهد بوادر حرب عالمية.

ويرغم أن هذا التفسير لم يرد فى الطبعة الإنجليزية، إلا أنها تتفرد بإشارة إلى أن الإسرائيليين أحيوا موضوع مياه النيل خلال محادثات اقتصادية جرت فى عام ١٩٩٣,

ومن الطبيعى أن المؤلف لا يحتاج، فى الطبعة الإنجليزية، إلى تعريف شخصيات تاريخية بريطانية أسهب فى التحدث عنها فى الطبعة العربية، مثل مارك سايكس الذى يفسر تعاطفه مع الصهيونية

بتأثره بدزرائيلى رئيس وزراء بريطانيا. ويشير إلى أن والدة مارك (هنريتا سايكس) كانت عشيقة دزرائيلى لسنوات طويلة. ويستند المؤلف فى ذلك إلى ( تاريخ حياة دزرائيلى الذى نشرته جان رايدل فى لندن فى عام ١٩٩٥). ويعنى ذلك أنت الأستاذ هيكل كان يطالع أحدث الكتب العالمية فى الوقت الذى بدأ فى كتابة هذا الكتاب. وهذا هو أحد أهم عوامل تفرده.

وهو يكتفى، فى الطبعة الإنجليزية بالإشارة إلى دور مارك سايكس، مع جورج بيكو الفرنسى، فى رسم خريطة الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى.

ولكن تخلو هذه الطبعة من تقييم المؤلف السلبى لموقف مصر تجاه القضية الفلسطينية عقب الحرب الأولى حيث يتحدث - فى العربية - عن غياب مصر عن ما كان يدبر لفلسطين، منتقدا - بشكل ضمنى - موقف قادة ثورة ١٩١٩، ومذكرا بأن "كل ما يتصل بفلسطين كان ولا يزال مؤثرا أساسيا على مصر سواء عرفه قادتها أو غابت عنهم معرفته".

وكان المؤلف موفقا فى أن يختص الطبعة العربية بهذا التقييم، الذى يعكس موقفه النقدى لكثير من السياسات المصرية قبل ثورة ١٩٥٢، باعتباره يتعلق بخلافات بين المصريين. وهى خلافات لا تهم معظم قراء الطبعة الإنجليزية. وآخذا فى الإعتبار اختلاف نوعية قراء الطبعتين، يبدو أن المؤلف حرص على إعطاء اهتمام أكبر، فى الطبعة الإنجليزية، لوعد بلفور وبخاصة تحليل مغزى توقيت صدوره قبل خمسة أسابيع فقط من احتلال قوات الليمبى

القدس. وهو حرص أيضا على أن يبلغ قارئ هذه الطبعة رسالة واضحة فى شأن تأثير "وعد بلفور" على نظرة العرب تجاه الغرب وما تنطوى عليه من شكوك مازالت قائمة. ويلفت فى هذا السياق إلى أن غالبية العرب كانوا تشككوا فى مغزى اتفاق أوسلو وخشوا أن يكون معنى "غزة وأريحا أولا" هو "غزة وأريحا فقط" ويشير إلى أن هذه الريبة تحير الكثيرين فى خارج العالم العربى. ويدعو "المتحيرين" إلى فهمها فى ضوء التأثير النفسى للوعود البريطانية (للعرب) التى لم تتحقق بما فيها وعد يرى أنه ورد ضمنيا فى داخل "وعد بلفور" نفسه، وهو أن "هذا الإعلان لا يمثل تحيزا ضد الحقوق المدنية والدينية لطوائف غير يهودية موجودة فى فلسطين". ويقول إن هذه العبارة التى بدت فى حينها وعدا ثبت أنه لا معنى له.

ومع ذلك تحوى الطبعة العربية تفاصيل أكثر عن دور بريطانيا فى تمرير "وعد بلفور" لدى العرب من خلال الإتصالات مع الشريف حسين ودور لورانس فى إقناع الأمير فيصل بن الحسين بالتفاهم مع حاييم وايزمان. ولكن تختلف الصياغة المستخدمة فى كل من الطبعتين، فى شأن موقف فيصل إزاء المشروع الصهيونى. فقد ورد، فى الطبعة العربية، تأكيد على أن "فيصل اعترف بفلسطين دولة لليهود وقبل كل ما من شانه التمهيد لإقامة هذه الدولة"، فى إطار التفاهم الذى تم بينه وبين وايزمان فى مؤتمر الصلح فى فرساى عام ١٩١٩, أما فى الطبعة الإنجليزية، فقد وردت الإشارة إلى موقف فيصل فى صياغة أقل حسما تفيد أنه (أقر ضمنيا هدف إعلان بلفور فى شأن وطن قومى لليهود فى فلسطين).

وفى تناول المؤلف لقلة حيلة الفلسطينيين إزاء ما نزل بهم يشير إلى عرائض الإسترحام التى قدموها إلى عصبة الأمم والحاكم العام البريطانى فى فلسطين. ولكنه يميز فى الطبعة العربية، بين عرائض قدمها مسلمون وأخرى قدمها مسيحيون، فيما لا يرد هذا التمييز فى الطبعة الإنجليزية. ومع ذلك تظل الرسالة التى يوصلها لقارئ أى من الطبعتين واحدة، وهى أنه كان هناك فارق بين عقليتين. عقلية الغرب المنظم، وعقلية الشرق القدرى المستضعف. ويبدى المؤلف اهتماما أكبر فى الطبعة الإنجليزية. بدور الحاج أمين الحسينى، إذ يبرز هذا الدور منذ تزعمه تظاهرات ١٩٢٠ وتعرضه للسجن. ويوصف الحسينى، فى هذه الطبعة، بأنه كان المعبر عن الغضب الفلسطينى على مدى ثلاثة عقود فيما يقتصر الحديث عنه فى الطبعة العربية على دوره فى ثورة ١٩٣٦ . كما تتفرد الطبعة الإنجليزية بإشارة ذات مغزى إلى دور حفيده فيصل الحسينى، وهى أنه عندما يضطر ياسر عرفات إلى تقديم تنازلات لإسرائيل يحرص على أن تلتقط له صورة مع فيصل الحسينى ليعطى الانطباع بأن المفتى الكبير - من خلال حفيده - يوافق. ويتحدث المؤلف فى الطبعة الإنجليزية أيضا عن أن فيصل الحسينى، وجد وسيلة ذات مرة لتذكير عرفات بصرامة موقف المفتى الكبير. ففى مايو ١٩٩٤ عندما كان عرفات فى القاهرة لتوقيع الاتفاق التنفيذى لإعلان أوسلو بقى فيصل فى "بيت الشرق" وبعث له "فاكس" يطلب عدم توقيع هذا الاتفاق.

ويلفت المؤلف إلى أن معارضة فيصل كانت قصيرة

المدى، لأنه وافق بعد أسابيع قليلة على أن يكون عضوا فى السلطة الفلسطينية المسؤولة عن تنفيذ الاتفاق الذى سبق أن دعا عرفات إلى عدم توقيعه.

كما يحظى دور الأمير (ثم الملك) عبد الله، واتصالاته مع الحركة الصهيونية، باهتمام أكبر فى الطبعة الإنجليزية، إذ يرى المؤلف أن حقبة الاتصالات السرية بدأت عقب الحملة التى شنها أمين الحسينى على عبد الله. وقصد بذلك هجوم الحسينى على اقتراح عبد الله إقامة اتحاد أردنى - فلسطينى تحت رئاسته، بحيث يكون لكل من الطرفين حكومة ومجلس تشريعى. وتضمن هذا الهجوم اتهاما لعبد الله بأنه "صديق لليهود". ووصف المؤلف ذلك الاقتراح بأنه تجاهل الحقوق الفلسطينية ولم يكن مقيدا لأحد سوى عبد الله نفسه. فقد كان الاقتراح ينطوى على اعتراف عربى بالانتداب البريطانى بما فى ذلك ما سعى إليه الانتداب من خلق وطن قومى لليهود فى فلسطين، على أن يتم حل مشكلات الهجرة اليهودية وشراء الأراضى فى إطار اتفاق بين العرب واليهود.

ومن أهم ما يطرحه المؤلف فى هذا السياق، هو أن ذلك النزاع بين الحسينى وعبد الله كان بداية لحقبة طويلة شعر فيها الوطنيون الفلسطينيون بأنهم تعرضوا لخيانة من عرب آخرين، بل ومن فلسطينيين آخرين أيضا. ويبدو أن المؤلف يمد هذه الحقبة إلى الوقت الراهن، لأنه يشير إلى أنها لم تنته بتوقيع اتفاق أوسلو. ويتطرق إلى أن اغتيال ثلاثة سفراء لمنظمة التحرير، خلال عقد ونصف العقد قبل هذا الاتفاق، ارتبط بشكوك فى استعدادهم لقبول سلام

مع إسرائيل، وهم سعيد جملى، وعز الدين القلق، وعصام سرطاوى. ويضيف أنه حتى ذلك الوقت ظل الموت هو ثمن تحدى الـ "تابو".

وفيما خلت الطبعة العربية من هذا الطرح، افتقدت الطبعة الإنجليزية بدورها تحليلا مهما لقواعد اللعبة السياسية فى الشرق الأوسط عقب الحرب العالمية الثانية. وهو تحليل ربما رأى المؤلف أن قارىء الطبعة الإنجليزية ليس فى حاجة إليه، وبخاصة أنه اعتمد على وثائق أمريكية وصفها - بحق - بأنها تعكس ألوان تلك المرحلة وظلالها. وجاء هذا التحليل فى البندين السادس والسابع فى الفصل الرابع (الكتاب الأول بالعربية) ولكن حصل خطأ فى ترقيم البند السابع الذى أخذ الرقم (٢) بدلا من (٧).

كما خلت الطبعة الإنجليزية من تحليل مهم لتأثير تولى كليمنت آتلى العمالى رئاسة الحكومة البريطانية بدلا من تشرشل المحافظ، والدور الذى قام به وزير الخارجية العمالى إرنست بيفن فى إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين. وهو تحليل يضعه المؤلف فى سياق قراءته الفاحصة لتطور الفكر الاستراتيجى البريطانى من ناحية ورؤيته لتأثير الدور الأمريكى من ناحية أخرى. ويتناول فى هذا الإطار الاتفاقية التى عقدتها بريطانيا مع الأردن فى مارس ١٩٤٦، وحلت محل اتفاقية الحماية. كما يتناول مفاوضات بريطانيا مع كل من العراق ومصر ولكن يعطى اهتماما أكبر ومساحة أوسع للمفاوضات المصرية - البريطانية.

ولكن الملاحظ هو أنه لا يكمل الرواية بعد ذلك

وصولا إلى ضم الضفة الغربية إلى شرق الأردن. فتخلو الطبعة العربية من قصة "مؤتمر أريحا" التى يرويها بتفصيل فى الطبعة الإنجليزية. وربما يعد هذا الموضع هو الوحيد الذى تتأثر فيه إحدى الطبعتين لغياب قصة واردة فقط فى الطبعة الأخرى. فغياب قصة مؤتمر أريحا، فى العربية، قد يؤثر على متابعة بعض قرائها لأحداث ما بعد حرب فلسطين. فعلى سبيل المثال، عندما ترد إشارة إلى رسالة بعث بها بن جوريون إلى الملك عبد الله يرحب فيها بتنفيذ قرارات مؤتمر أريحا، قد يصعب على بعض القراء غير الملمين بتاريخ تلك الفترة إدراك مغزى الرسالة.

وعلى عكس الطبعة العربية، تتضمن الإنجليزية تفاصيل هذا المؤتمر، الذى يعتبره المؤلف دليلا على أن إسرائيل لم تكن وحدها التى تسببت فى حرب ١٩٤٨، وأن عبد الله كان فائزا أيضا، مشيرا إلى أن إسرائيل لم تمنعه من السيطرة على الضفة الغربية وتحقيق حلمه فى إقامة مملكة على ضفتى نهر الأردن. ويرى أن القياديين الفلسطينيين الذين بقوا فى الضفة الغربية كانوا مستعدين لقبول حكم عبد الله باعتباره "أقل الشرور".

ومثلما خص المؤلف الطبعة العربية بتقييمه السلبى للموقف المصرى تجاه قضية فلسطين بعد الحرب العالمية الأولى نجده يركز فى هذه الطبعة أيضا على ما يسميه "عودة مصر إلى الساحة"، وهو عنوان الفصل الرابع فى الكتاب الأول بالعربية. ويقصد بذلك اشتراك مصر فى مؤتمر فلسطين الذى عقد فى لندن عام ١٩٣٨، إذ يعتبره نقطة تحول بارزة فى

سياسة مصر، وفى سياسات الشرق الأوسط عموما. وهو فصل يتضمن تحليلا لأوضاع مصر والمدارس الفكرية والسياسية التى كانت قائمة فى تلك الفترة ما لا لزوم للتطرق إليه فى الطبعة الإنجليزية.

ولكنه يبدى اهتماما أكبر، فى هذه الطبعة، بوضع اليهود فى مصر، مؤكدا أنهم كانوا جزءا من أهلها على مر التاريخ، ولم يكن هناك أى تمييز ضدهم. وهى رسالة مهمة لقارىء الطبعة الإنجليزية، وتنطوى على إيضاح ضرورى لمعاملة كثيرين من اليهود المصريين كأجانب منذ الفترة الأخيرة للحكم العثمانى. فهو يوضح أن هؤلاء هم الذين فضلوا أن يتم تصنيفهم كأجانب فى ذلك الوقت للاستفادة من قوانين صدرت ومنحت امتيازات خاصة للأجانب الذين كانوا يقيمون فى مصر. ويشدد على أن هذا كان اختيارهم، ولم يفرض عليهم.

وفى مقابل هذه الرسالة إلى قارىء الطبعة الإنجليزية، يركز المؤلف فى الطبعة العربية على محاولات الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية إبعاد مصر عن دائرة الصراع على فلسطين، وبخاصة فى ربيع وصيف عام ١٩٤٦ حيث حصل ما يسميه "تركيزا يهوديا وصهيونيا غير مسبوق فى القاهرة"، عقب قمة أنشاص العربية التى دعا إليها الملك فاروق. ويدلل على ذلك بموقف حاخام اليهود فى مصر حاييم ناحوم عندما عبر للملك فاروق عن خشيته من الاندفاع المصرى للتورط فى الصراع القائم فى فلسطين، ودور الياهو ساسون مستشار الشؤون العربية فى الوكالة اليهودية الذى أقام فى مصر طوال

صيف عام ١٩٤٨، والتقى رئيس الوزراء وقتها اسماعيل صدقى وعددا من الساسة والمثقفين المصريين، وزيارة بن جوريون إلى القاهرة.

ولكن المؤلف استدرك موضحا أن هؤلاء الذين التقوا ساسون أو غيره من القياديين الصهاينة لم يكونوا متورطين فى شىء ولا يمكن اتهام أحد منهم بالتعاون مع الصهيونية، لأن هذه الحركة لم تكن ظاهرة بعد للرأى العام العربى. وهو استدراك ضرورى "يقتضيه الإنصاف" بالفعل كما وصفه المؤلف، حتى لا تفسر روايته على أنها إدانة لهم وبخاصة لأن الكتاب صدر فى وقت يشهد مناخ عداء شديد لإسرائيل فى مصر. ولذلك كان مهما أن يؤكد المؤلف أن "الاتصالات التى دارت بين ساسة مصريين وممثلين للوكالة اليهودية والحركة الصهيونية كانت داخل إطار سياسى يمكن فهمه".

كما يتوسع المؤلف، فى الطبعة العربية فى رواية تفاصيل أحداث حرب ٤٨ - ١٩٤٩، التى يشير إليها باقتضاب فى الطبعة الإنجليزية. ومن أهم ما تضمنته روايته عن الحرب هو الضوء الذى يلقيه على ما عرف باسم "قضية الأسلحة الفاسدة"، التى كانت من أهم عوامل التوتر الداخلى فى مصر عقب الحرب بسبب شيوع اعتقاد واسع ربط بين فساد الحكم وفساد الأسلحة التى تم تزويد القوات المصرية فى فلسطين بها. ويوضح أن ما حصل، وهو ما يجهله كثيرون حتى الآن يتلخص فى سوء تقدير السلطات المصرية حاجات الجيش من السلاح، وسوء تدبيرها لهذه الحاجات. فقد أرسل الملك فاروق ووزير حربيته اللواء

محمد حيدر باشا بعثات شراء سلاح إلى أوروبا لشراء أسلحة مما بقى هناك من معارك الحرب العالمية الثانية بأسعار رخيصة لأن معظم هذه الأسلحة كانت متروكة فى الصحراء لسنوات أو مكدسة فى مخازن مهجورة، مما أثر على صلاحيتها كثيرا.

وبرغم كثرة التفاصيل عن هذه الحرب فى الطبعة العربية، لم ترد سوى إشارة سريعة إلى دور "الإخوان المسلمين" فيها، نقلا عن مذكرات بن جوريون فى يوم ٢٤ مايو ١٩٤٨، حيث كتب "الضغط قوى فى النقب. هناك كتيبة مصرية مع مدافع يساعدها متطوعون من رجال الإخوان المسلمين موجودون فى النقب منذ وقت طويل".

ولكن المؤلف تناول فى الطبعة الإنجليزية، دور "الإخوان" ضمن معالجته للأوضاع المضطربة التى سادت بلادا عربية عدة عقب حرب ١٩٤٨، ومنها مصر. وأشار إلى أن "الإخوان"، الذين قتل كثيرون منهم خلال المعارك، جادلوا بأن العرب لم يخسروا بسبب الخيانة وعدم التخطيط فقط ولكن أيضا نتيجة ضعف الولاء للإسلام، فيما انتصر اليهود لأنهم "أعادوا اكتشاف إيمانهم". وكأنه أراد بذلك أن يحذر من الاتجاه إلى اضفاء طابع دينى على الصراع العربى الإسرائيلى. وكأنما كان الأستاذ يقرأ ما سيحدث فى الواقع بعد سنوات قليلة إذ صدق تحذيره وأخذ الطابع الدينى يفرض نفسه على الصراع مع انهيار عملية أوسلو ونشوب انتفاضة الأقصى.

ويختتم هيكل الكتاب الأول فى الطبعة العربية بكتابة عاطفية عن ضياع فلسطين ونجاح المشروع الصهيونى فى وضع الحاجز المطلوب بين مصر وسورية، وشطر العالم العربى إلى نصفين قام بينهما جدار يقف مانعا يتصدى لفعل التاريخ. وينقل عن الملك عبد الله قوله إن أهل الشمال "سورية" تعثروا، وأهل الجنوب "مصر" تمرغت جباههم فى التراب. ويصف هذا القول بأنه صراحة محزنة ويؤكد أن السلاح هو الذى كان حاسما بصرف النظر عن الأساطير والعقائد. فلم تكن قوة الفكرة وحدها قادرة على دفع موجات الهجرة من شرق أوروبا إلى الشرق الأوسط وإنما كانت قوة النار سابقة على الهجرة وداعية لها وحامية.

# الفصل الخامس

## صورة عبد الناصر والسادات فى لغتين

يبرز الكتاب ،فى الطبعتين، إخفاق المحاولات التى جرت لترتيب اتصال بين الرئيس عبد الناصر وإسرائيل، عقب ثورة ١٩٥٢ فى مصر. وهو يسهب فى رواية قصص هذه المحاولات فى الطبعة العربية أكثر من الإنجليزية، ربما لتذكير القارئ العربى بموقف عبد الناصر وما انطوى عليه من "صلابة" فى مقابل "تنازلات" السادات.

وفى هذا السياق يرسم هيكل صورة ايجابية لعبد الناصر بوجه عام، برغم أن ملامحها تختلف فى كل من الطبعتين. فجاءت هذه الصورة أكثر تفصيلا فى الطبعة الإنجليزية، التى تضمنت معلومات أساسية عن تاريخ حياة عبد الناصر : كان ابنا لعامل فى هيئة البريد فى جنوب مصر وشابا جادا درس القانون، ولكنه اختار الانتظام فى السلك العسكرى لأنه رأى أن الجيش كان هو المؤسسة الوحيدة التى يمكن أن تحرر مصر من الاحتلال البريطانى. وبدأ فى عام ١٩٤٦، يناقش أفكاره فى هذا المجال مع زملاء له فى الأكاديمية العسكرية المصرية التى كان يحاضر فيها. وفى عام ١٩٥٠ شارك ٩ منهم فى تأسيس حركة الضباط الأحرار برئاسة عبد الناصر.

ويشير المؤلف إلى أن هؤلاء جمعت بينهم مشاعر وطنية قوية ولكن من دون ارتباط بأيديولوجية موحدة. ويضيف أن عبد الناصر قرأ أعمال كارل ماركس ولينين ،وأفكار الجماعات الإسلامية الراديكالية، ولكنه لم يؤيد الشيوعية ولا الأصولية المتشددة. وكان أكثر من أعجبوه استراتيجيين عسكريين كبارا وليسوا أيديولوجيين.

ويعتبر المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية أيضا، أن عبد الناصر لم تكن لديه خبرة فى الشؤون الدولية عندما قامت ثورة ١٩٥٢ , ويكشف عن أنه، عندما بدأ اتصالاته مع الأمريكيين، كانت معرفته بهم قائمة على ما شاهده من أفلام الثلاثينات، وبخاصة أفلام الممثل المعروف جارى كوبر.

أما صورة عبد الناصر فى الطبعة العربية، فقد ورد فيها أنه شارك فى السياسة للمرة الأولى من خلال تظاهرة نظمتها حركة مصر الفتاة فى مدينة الاسكندرية، وسار فيها مع غيره من الشباب، حيث تم القبض عليه وقضى ساعات عدة فى قسم شرطة فى منطقة المنشية فى هذه المدينة. كما ورد أنه اختار موضوع أطروحته إلى امتحان كلية أركان الحرب عن "خطة الجنرال اللنبى فى فلسطين".

وتشير الطبعة العربية بخلاف الإنجليزية إلى أن عبد الناصر كان على اتصال مع جماعة "الأخوة المسلمين" وتعرف على مرشدها الأول حسن البنا وارتبط بعلاقات صداقة قوية مع زملاء له كانوا أعضاء فيها.

وإلى ذلك ورد في كل من الطبعتين، ضمن الصورة التى رسمها المؤلف لعبد الناصر أنه شارك فى حرب فلسطين ٤٨ - ١٩٤٩ وأنه كان ضابط أركان حرب الكتيبة السادسة مشاة التى عملت على محور "عراق المنشية - الفالوجة - عراق سويدان". كما كان من بين الذين تعرضوا لحصار إسرائيل فى جيب فى قلب منطقة النقب.

ويروى المؤلف، فى كل من الطبعتين أيضا، أن عبد الناصر رافق قائد كتيبته إلى لقاء جرى مع القائد الإسرائيلى للجبهة الجنوبية بيجال آلون فى شأن تثبيت خطوط الهدنة. كما يشير إلى اتصال آخر تم بين عبد الناصر وضابط إسرائيلى هو بيروهان كوهين، عندما عبر الأخير إلى المواقع المصرية وحاول اقناع عبد الناصر بأنه لا مبرر للحرب بين المصريين والإسرائيليين، ولكن عبد الناصر لم يرغب فى مناقشة هذا الموضوع، وسعى إلى تغييره. وحرص المؤلف على أن يبرز هذا الموقف الذى تشدد فيه عبد الناصر بعد ثورة ١٩٥٢، بخلاف أنور السادات الذى يرسم له الكتاب صورة سلبية، وخاصة فى الطبعة الإنجليزية التى تشير إلى أنه تم تعيينه فى منصب نائب رئيس الجمهورية قبل ٩ شهور من رحيل عبد الناصر، ولكن قليلين فقط الذين اعتقدوا فى أنه سيكون رئيسا. ويرى المؤلف أن تعيين السادات نائبا لعبد الناصر كان مقصودا منه مجرد ملء الفراغ عندما ذهب الأخير فى رحلة إلى دول شمال أفريقيا فى ١٩٦٩ . ويضيف فى الطبعة الإنجليزية وحدها، أيضا، أن تعيين السادات فى منصب نائب الرئيس كان

أمرا مؤقتا، لكن عبد الناصر لم يجد وقتا لاختيار شخص أفضل. ويظهر هنا موقف الأستاذ هيكل السلبى تجاه السادات، وخاصة فى روايته عن الاتصالات التى أجرتها مصر فى شأن مبادرة روجرز عام ١٩٧٠ . فقد أشار إلى أن هذه المبادرة كانت نوقشت فى موسكو بين الزعيم السوفياتى بريجنيف وثلاثة وزراء مصريين، برغم أن السادات (نائب الرئيس) كان أحد أعضاء الوفد المصرى إلى موسكو فى ذلك الوقت. ولكنه كتب فى هامش فى الصفحة التى وردت فيها هذه القصة، أن ممثلى مصر فى محادثات موسكو كانوا محمد فوزى وزير الحربية ومحمود رياض وزير الخارجية وأنور السادات نائب الرئيس. ولا يخفى مغزى تأخير اسم السادات بعد الاسمين الاخرين، فى حين يفرض الترتيب الرسمى أن يأتى اسمه أولا.

وفى هذه الطبعة (الإنجليزية) يبدو السادات فى صورة من افتقد المؤهلات التى جعلت عبد الناصر زعيما بارزا. ولذلك اعتبره كثيرون، فى مصر وخارجها، رئيسا انتقاليا سيخلفه آخر أكثر قدرة على التعاطى مع مرحلة ما بعد غياب عبد الناصر. ويشير المؤلف هنا إلى أن إدارة نيكسون فى الولايات المتحدة كان لديها هذا الاعتقاد هى الأخرى. ووفق الطبعة الإنجليزية أيضا. لم يصبح السادات رئيسا الا لأن أحدا من منافسيه لم يسع علنا إلى منصب الرئاسة.

ولكن يبدو المؤلف أكثر انصافا للسادات فى الطبعة العربية، اذ قدم تحليلا - فى الكتاب الثانى -

للتحولات التى حصلت منذ ما أسماه النهاية الغربية لحرب أكتوبر ١٩٧٣، إلى اتفاقى فك الاشتباك بين مصر وإسرائيل فى ١٩٧٤ و١٩٧٥، وما ترتب على ذلك "من عواقب أدت إلى انقلاب كامل فى استراتيجية مصر". متسائلا : كيف أمكن لتلك التحولات أن تحدث بهدوء ومن دون أن تثير مقاومة أو ردة فعل فى داخل مصر؟ وضمن اجابته، التى أشار فيها إلى أن الشعب المصرى "كان مرهقا بمسيرة طويلة عنيفة ومضنية مشى إليها مع عبد الناصر"، تحدث عن أن الناس تلفتوا عقب رحيل الأخير ليجدوا فى موقعه صراعا على السلطة بين خلفائه، وأقلقهم هذا الصراع كثيرا وملأهم خوفا من المستقبل. وعندما خرج السادات من الصراع منتصرا على الأخرين، كان هو بالنسبة إلى الشعب المصرى فى ذلك الوقت "احتمالا معلقا لا يستطيع أحد تقدير وزنه، أو يطمئن إلى أنه يستطيع وراء قيادته أن يخوض أقسى تجربة تنتظر، وعليها يتوقف المستقبل والمصير". ويبدو انصاف المؤلف للسادات هنا بالمقارنة مع الطبعة الإنجليزية، فى اشارته إلى أن "السادات كان أذكى مما تصورته جماهير مصر والعالم العربى، وكان قادرا على الحركة بأكثر مما بدا من عجزه، ثم أنه فى لحظة اليأس من الحل (السلمى)، امتلك شجاعة اصدار القرار، ثم عبور جسور السويس ، ولاحت انتصارات الأيام الأولى وعدا تحقق ومعجزة ظهرت بشارتها، ومن ثم تصور الناس أنها نقطة الوصول وتنفسوا الصعداء، ولم يخطر ببال كثيرين أن النتائج العسكرية فى الحرب المحدودة هى فى الواقع نقطة بداية الحرب الحقيقية : حرب التحقيق السياسى

لأهداف القتال". وعند هذا الحد، ينتهى انصاف هيكل للسادات.

ويبدى الأستاذ اهتماما أكبر، فى الطبعة العربية، بردة فعل الإسرائيليين على ثورة ١٩٥٢ . ويروى أن أبا ايبان، الذى كان سفيرا لاسرائيل لدى واشنطن وقتها طلب إلى الأمريكيين توجيه النصح إلى النظام الجديد فى مصر فى شأن أهمية التوصل إلى سلام مع إسرائيل، ويوضح أن أبا ايبان هو الذى طلب إلى باركر هارت مساعد وكيل الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط توجيه هذا النصح. ولا ترد إشارة إلى دور أبا ايبان هذا فى الطبعة الإنجليزية.

وبوجه عام، تحتوى الطبعة العربية تفاصيل كثيرة عن المحاولات الإسرائيلية لإجراء اتصالات مع مصر عقب ثورة ١٩٥٢ . فيما تقتصر الطبعة الإنجليزية على إشارة إلى أن الحكومة الإسرائيلية أخذت تبعث رسائل إلى القادة الجدد فى مصر عبر وسطاء، وتخص بالذكر ريتشارد كروسمان عضو مجلس العموم البريطانى، الذى التقى عبد الناصر فى منزل الدبلوماسى الأمريكى وليام لاكيلاند، مع إشارة ذات مغزى إلى أن المصريين اكتشفوا بعد ذلك أن الأخير كان من رجال المخابرات الأمريكية.

ويضيف هيكل، فى الطبعة العربية، ملاحظة لا تخلو من مغزى أيضا، وهى أن لقاء كروسمان وعبد الناصر لم يتم بترتيب من السفارة البريطانية وإنما عن طريق السفارة الأمريكية فى القاهرة.

وفيما تحوى الطبعة الإنجليزية عرضا لأهم الوساطات التى جرت فى محاولة لترتيب اتصال رسمى بين مصر وإسرائيل، يقدم المؤلف فى الطبعة العربية تحليلا عميقا للمتغيرات التى كانت تحصل فى ذلك الوقت، وأهمها تراجع دور بريطانيا فى الشرق الأوسط وتقدم الولايات المتحدة بسرعة.

وهو يلخص، فى الطبعة الإنجليزية، ما يفصله فى العربية من محاولات وسطاء آخرين ترتيب اتصال بين مصر وإسرائيل. ولكنه لا يذكر منهم، فى الإنجليزية، غير باربرا كاسل عضو مجلس العموم عن حزب العمال، وهى كانت مراسلة سابقة لجريدة "لندن ديلى ميرور" وانيورين بيفين وزير صحة بريطانى سابق فى حكومة اتلى. ويذكر فى الطبعة العربية، أسماء آخرين مثل عضوى مجلس العموم جورج براون، وودرو ويمات، وصحافيين كبار مثل كنجزلى مارتن، ودنيس هاملتون، وولتر ليبان، وجوزيف السوب، وجيمس رستون، وإد مورو. ويوضح أن بن جوريون كان يحمل أى صحافى أمريكى يزور القاهرة رسالة إلى النظام الجديد فيها.

ويبدى المؤلف اهتماما خاصا، فى الطبعتين، بمحاولة عالم الطبيعة الكبير البرت اينشتاين، موضحا أنه كان متطوعا، ولم يكن من بين الذين كلفهم بن جوريون بنقل رسائل إلى عبد الناصر. وكان الأستاذ هيكل قد وجد نفسه طرفا فى محاولات اينشتاين هذه، إذ كان فى رحلة إلى واشنطن فى نهاية عام ١٩٥٢ وبداية ١٩٥٣، وذهب إلى نيويورك والتقى صديقه القديم الدكتور محمود عزمى الذى كان نائبا

لرئيس بعثة مصر لدى الأمم المتحدة، ولما كان برنامج الأستاذ هيكل يتضمن برنيستون أيضا لزيارة معهد جالوب فقد رتب له عزمي لقاء مع اينشتاين.

ويروى المؤلف أن اينشتاين عرف أنه يرتبط بعلاقة صداقة مع عبد الناصر، فأراد أن يحمله رسالة مفادها أن "سلاما بين مصر وإسرائيل هو ضرورة حضارية وأخلاقية وسياسية أيضا". وتم إبلاغ الرسالة إلى عبد الناصر، الذى فضل عدم الرد عليها.

ولكن يوجد اختلاف فى بعض تفاصيل قصة اينشتاين فى كل من الطبعتين. ففى العربية، يذكر المؤلف أن اينشتاين قال وهو يشرح فحوى رسالته إلى عبد الناصر أنه - أى اينشتاين - كانت تلقى دعوة قبل أيام، بواسطة بن جوريون ليكون رئيسا لإسرائيل بعد أن توفى رئيسها الأول حاييم وايزمان، واعتذر عن العرض لأن ذلك خارج شواغله واستعداداته لكنه أحس فى الوقت الذى اعتذر فيه عن عدم رئاسة إسرائيل أن واجبه يدعوه إلى أن يفعل شيئا من أجلها.

أما فى الطبعة الإنجليزية لا يذكر المؤلف أن اينشتاين تحدث عن موضوع اعتذاره عن رئاسة إسرائيل خلال اللقاء الذى تم بينهما، وإنما يقول أنه تبين لاحقا أن توقيت محاولة اينشتاين كان ذا مغزى لأنه جاء عقب هذا الاعتذار. ويذكر تفاصيل لم ترد فى الطبعة العربية، عن أن أبا ايبان هو الذى بعث العرض الى اينشتاين تلغرافيا، ويورد ما تضمنته البرقية، وكيف رد اينشتاين عليها معتذرا.

وفى الطبعة العربية، ورد أن عدم تلقى اينشتاين إجابة مصرية دفعه إلى تكرار المحاولة عن طريق رئيس وزراء الهند نهرو. ولكن فى الإنجليزية يذكر المؤلف أن هذه المحاولة - عبر نهرو - كانت الثالثة التى قام بها اينشتاين، إذ سبقها محاولة ثانية عن طريق محمود عزمى فى صورة رسالة مكتوبة. ويمكن تفسير هذين الاختلافين بأن المؤلف حرص على اختصار قصة محاولة اينشتاين فى الطبعة العربية، على أساس أنه كان رواها تفصيلا فى كتاب سابق هو "زيارة جديدة للتاريخ" كان صدر فى عام ١٩٨٥ . ولكن يظل هناك اختلاف أكثر أهمية بين الطبعتين، فى شأن الكيفية التى تصرف بها عبد الناصر بعد أن فاتحه نهرو فى الموضوع. فقد ورد، فى الطبعة العربية، أن عبد الناصر طلب إبلاغ عزمى فى نيويورك أن يتصل مع اينشتاين، ويبلغه ردا عاما يفيد أن أفكاره سوف توضع فى الاعتبار عندما يجىء الوقت المناسب للبحث فى مشكلة العلاقات مع إسرائيل. أما الطبعة الإنجليزية، فقد ورد فيها أن عبد الناصر ظل يرى أنه من الأفضل عدم الرد على اينشتاين، حتى بعد أن أثار نهرو الموضوع.

وفيما وردت فى الطبعة العربية إشارة سريعة إلى أن مصر عاشت فى ذلك الوقت "تغييرا ثوريا بعيد المدى"، يتوسع المؤلف - فى الطبعة الإنجليزية - فى شرح معالم هذا التغيير لأن القارىء العربى يعرف هذه المعالم أكثر من القارىء الغربى، فقرر أن يحيطه علما بها فى صياغات تنم عن تعاطف شديد مع ثورة ١٩٥٢, فهو يكتب أن مصر تغيرت جوهريا بعد عام

على هذه الثورة. إذ صدر القانون الذى وضع حدا أقصى لملكية الأراضى الزراعية، وأنهى دور ملاك الأرض الإقطاعيين، كما صودرت أملاك العائلة المالكة السابقة لاستخدامها فى برامج اجتماعية وصناعية متنوعة، مشيرا إلى بناء مدرستين جديدتين كل ثلاثة أيام، وإنشاء مستشفيات ومراكز للرعاية الاجتماعية. وينوه المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية أيضا، بأن هذا التغيير أثار مخاوف إسرائيل من أن مصر ستكون عدوا أكثر خطورة.

ويعطى المؤلف اهتماما واضحا للعلاقات العربية - الأمريكية فى ذلك الوقت بعد وصول دوايت ايزنهاور إلى البيت الأبيض.

وهو يصف ايزنهاور فى الطبعة العربية، بأنه "رئيس غير عادى" فيما يصفه فى الطبعة الإنجليزية بأنه "بطل حرب" فى إشارة إلى أنه كان قائد قوات الحلفاء التى انتصرت على النازيين.

وفيما يشير فى عجالة، فى الطبعة الإنجليزية، إلى محادثات وزير الخارجية الأمريكى دالاس مع نظيره المصرى محمود فوزى فى مايو ١٩٥٣ ينشر تفاصيل كثيرة عن هذه المحادثات فى الطبعة العربية. وأهمها من حيث المغزى بالنسبة إلى القارىء العربى هو أن دالاس لاحظ وسجل فى محضره أن فوزى لم يذكر إسرائيل، وإنما كان يتحدث عن فلسطين طوال المحادثات.

والغريب هو أن الطبعة العربية تخلو من إشارة إلى

محادثات عبد الناصر مع دالاس وقتها، برغم أنها وردت فى الإنجليزية، ومعها إيضاح مهم وهو أن دالاس لم يطلب خلالها التوصل إلى اتفاق بين مصر وإسرائيل قبل الانسحاب البريطانى من مصر. وترجع أهمية موقف دالاس هذا إلى أن إسرائيل سعت إلى اقناع الولايات المتحدة بضرورة التوصل إلى اتفاق مع مصر قبل الإنسحاب البريطانى.

وفى المقابل، تخلو الطبعة الإنجليزية من أية إشارة إلى دور السفير الأمريكى لدى مصر هنرى بايرود الذى كان وكيلا للخارجية الأمريكية قبل إيفاده سفيرا لدى القاهرة، فى يناير ١٩٥٥، فيما يظهر هذا الدور بوضوح وتفصيل فى الطبعة العربية. ويوضح المؤلف، فى هذه الطبعة، أن إيفاد بايرود إلى مصر تم بعد اجتماع على مستوى رفيع عقد فى وزارة الخارجية الأمريكية، إذ كان هناك "اعتقاد كبير فى أن بايرود بشخصيته الذكية وبخلفيته العسكرية يستطيع أن يفهم عبد الناصر ويوحى إليه بأكثر مما يستطيع ذلك سفير عادى وتقليدى".

كما تحوى الطبعة العربية تفاصيل أكثر عن الاتصالات المصرية - الأمريكية عقب صفقة الأسلحة التشيكية لمصر فى سبتمبر ١٩٥٥ . وفيما يكتفى بإشارة، فى الإنجليزية، إلى أن هذه الصفقة حولت موقف أمريكا تجاه عبد الناصر من الدهشة إلى الغضب، يكشف - فى العربية - أن دالاس فكر فى توجيه إنذار إلى عبد الناصر. ويستند فى ذلك إلى أوراق دالاس الخاصة المودعة فى جامعة برنستون. ولكن دالاس غير تفكيره وظل يحاول إقناع نفسه

بإمكان التفاهم مع عبد الناصر على عدم تكرار هذه الصفقة.

ويعالج المؤلف الاتصالات المصرية - الأمريكية فى ذلك الوقت من منظور أن واشنطن كانت تسعى إلى "شراء مصر" على حد تعبيره فى الطبعة العربية، ومن منظور أن أمريكا كانت تضغط على مصر للتوصل الى سلام مع إسرائيل مقابل تمويل بناء السد العالى، كما ورد فى الطبعة الإنجليزية.

ويروى فى الطبعتين قصة محادثات روبرت اندرسون فى مصر وإسرائيل فى مطلع عام ١٩٥٦ مع تفاصيل أكثر فى الطبعة العربية فيما تتميز الطبعة الإنجليزية بإشارة بالغة الأهمية إلى أندرسون قام بدبلوماسية مكوكية بين مصر وإسرائيل.

وبذلك كانت مهمة أندرسون هى أول ممارسة أمريكية للدبلوماسية المكوك التى صارت الآلية الأساسية فى تحرك واشنطن فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٧٤ .

والملاحظ أن الطبعة العربية الأكبر حجما تلخص أحداث الفترة ما بين فشل مهمة أندرسون فى يناير ١٩٥٦ وتأميم قناة السويس فى يوليو من العام نفسه فى سطور قليلة. كما تخلو من تفاصيل أحداث حرب السويس، اعتمادا على أن المؤلف سجلها فى كتاب سابق له هو "ملفات السويس".

أما الطبعة الإنجليزية فهى، تتناول أحداث تلك الفترة، وبخاصة منذ أن "اكفهرت الأجواء أكثر فى

مايو ١٩٥٦"، فى اشارة إلى اعتراف مصر بالصين الشيوعية، وقيام أجهزة استخبارات غربية برصد زيادة فى تدفق الأسلحة السوفياتية إلى مصر.

ويكتب المؤلف، فى هذه الطبعة، أنه فى ذلك الوقت قررت الإدارة الأمريكية أن هناك ضرورة لاتخاذ موقف أكثر قوة تجاه عبد الناصر، وأعلنت فى ١٩ يوليو انسحابها من برنامج تمويل بناء السد العالى. وهو يلاحظ أن اللجوء إلى اصدار بيان، بدلا من رسالة، لإعلان قرار سحب التمويل كان يرمى إلى إضعاف مكانة عبد الناصر. ويواصل رواية الأحداث، وصولا إلى قرار تأميم قناة السويس. ويؤكد أن الرئيس المصرى كان يدرك المخاطر المترتبة على القرار، وكان واثقا أن شعبه مستعد لمواجهتها وينوه بأن كل موقف اتخذه عبد الناصر ضد الضغوط الغربية وفر له مزيدا من الشعبية فى مصر أولا ثم فى كل العالم العربى.

ويبرر المؤلف، من طرف خفى حصول عبد الناصر على ٩٩,٩ فى المئة فى أول استفتاء على الرئاسة فى ١٩٥٦ (يستخدم المؤلف تعبير الانتخابات الرئاسية وليس الاستفتاء) عبر التشديد على الشعبية التى تحققت له.

وربما كان هذا التبرير هو الموقف الوحيد الذى تبناه المؤلف من دون مراعاة لنوعية قارئ الطبعة الإنجليزية الذى يصعب عليه تصديق أن تصل شعبية أى زعيم إلى ٩٩,٩ فى المائة.

ويخلص المؤلف، فى روايته لقصة حرب السويس، إلى أن الولايات المتحدة حققت هدفها فى الحلول محل بريطانيا كقوة ذات نفوذ متميز فى الشرق الأوسط، قبل أن ينتقل إلى تحليل موقف إدارة كيندى تجاه الصراع العربى - الإسرائيلى. وتحوى الطبعة الإنجليزية معلومات أكثر عن هذا الموقف الذى تتباين طريقة معالجته - جزئيا - فى كل من الطبعتين.

فالطبعة العربية تبرز قلق كيندى من احتمال نشوب سباق تسلح نووى يهدد الشرق الأوسط والعالم كله وتعتبر العامل النووى من العوامل التى دعت كيندى إلى محاولة تسوية الصراع، إلى جانب الحلم التقليدى الذى خطر ببال كل رئيس أمريكى قبل كيندى وبعده، بأن يأخذ لنفسه دور صانع السلام فى الأرض المقدسة، أو إعداد المنطقة على الأقل للسلام الأمريكى فى اطار الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتى.

ولكن الطبعة الإنجليزية لا تبرز أهمية العامل النووى، فيما توضح كيف تطورت العلاقة بين عبد الناصر وكيندى بدءا من أزمة كوبا فى بداية عام ١٩٦٢، وهو ما يرد فى الطبعة العربية.

ويروى المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية، أن الخطابات المتبادلة الأولى بينهما تناولت الأحداث فى منطقة الكاريبى، حيث كان عبد الناصر اتخذ موقفا مؤيدا لكاسترو. ويوضح أن كيندى كتب إلى عبد الناصر شارحا وجهة نظر الولايات المتحدة، وأن الرئيس المصرى رد بخطاب مهذب، ثم أرسل كيندى

رسالة إلى عبد الناصر فى ١٢ مايو ١٩٦٢، لفت فيها إلى أن مصر تستطيع أن تتوقع مساعدات أكثر من الولايات المتحدة إذ قلصت علاقتها مع موسكو واعترفت باسرائيل وعرض المساعدة فى تسوية النزاع العربى - الإسرائيلى.

ومن أهم ما يرد، فى الطبعة الإنجليزية وحدها، هو أن رسالة كيندى هذه أثارت سؤالا فى مصر عن دوافعه للتورط فى قضية شائكة كهذه. ويكشف المؤلف عن أن عبد الناصر طلب إلى كبار مساعديه ووزرائه تقديم آرائهم مكتوبة حول موقف كيندى. وفيما اعتبر بعضهم أن الرسالة تعكس رغبة حقيقية فى خفض التوتر فى الشرق الأوسط تحدث البعض الآخر عن مؤامرات غامضة. وكان رأى وزير الخارجية وقتها محمود فوزى أن كيندى يحاول وضع مصر فى موقف صعب. ويضيف المؤلف أن الجدل حول تفسير موقف كيندى استمر نحو شهرين قبل أن يبعث عبد الناصر له رسالة جوابية تضمنت تحليلا للوضع فى المنطقة، ونقدا لوعد بلفور الذى قدم من لا يملك إلى من لا يستحق، وأن كليهما مهدا بالقوة والتآمر إلى حرمان من يملكون ويستحقون. والحق أن من يتأمل كيف عالج الأستاذ هيكل هذا الموضوع، وتحليله لمعلومات ظلت جديدة بعد مرور نحو ربع قرن على الأحداث المتعلقة بها يعرف مدى تميز هذا الكاتب الذى لم يجود زماننا العربى بمثله.

وتتفرد الطبعة الإنجليزية أيضا بأن عبد الناصر وكيندى ومساعدوهما تبادلوا بعد تلك الرسالة مراسلات مكثفة وصلت إلى ٩٢ رسالة خلال ٢٢ شهرا.

ويلاحظ المؤلف أنه رغم أن كيندى اغتيل قبل أن يحقق هدفه إلا أن العلاقات المصرية الأمريكية تحسنت فى عهده موضحا أن هذا التحسن لم يستمر، إذ أدرك المصريون فور تولى جونسون الرئاسة أن السياسة الأمريكية ستتغير فى صالح إسرائيل. وينوه بأن المصريين لم ينسوا لجونسون موقفه فى عام ١٩٥٦، عندما عارض قرار أيزنهاور ارغام إسرائيل على الإنسحاب من سيناء.

ولكن تختلف الطبعتان فى تحديد موقع جونسون وقتها، إذ ورد فى العربية أنه كان زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ، فيما جاء فى الإنجليزية أنه كان زعيم الأغلبية فى مجلس النواب، والطبعة العربية هى الأدق. وبوجه عام فإن معظم رؤساء الولايات المتحدة كانوا خدموا فى مجلس الشيوخ الذى يتمتع بمكانة أكبر فى النظام السياسى الأمريكى.

وكان طبيعيا أن يعطى المؤلف اهتماما أكبر لحرب ١٩٦٧ فى الطبعة العربية، إذ يقدم تحليلا عميقا كان مهما أن يرد فى الطبعة الإنجليزية، وبخاصة لأن كثيرين من الغربيين يعتقدون أن اسرائيل خاضت حربا دفاعية وهو ما يفنده المؤلف فى الطبعة العربية.

ولكنه يقدم فى الطبعة الإنجليزية تحليلا مهما أيضا للخداع الذى وفر لإسرائيل عنصر المفاجأة الهجومية فى يوم ٥ يونيو من خلال علاقات معقدة بين إسرائيل وأمريكا، وبين أمريكا والاتحاد السوفياتى، وبين القاهرة وموسكو. ففى اللحظة التى كانت اسرائيل تعد الهجوم اعتقدت مصر أن القوتين

العظميين تحاولان بجدية منع نشوب الحرب، التى تحوى الطبعة الإنجليزية أهم أحداثها والخسائر المصرية فيها، فيما تقفز الطبعة العربية مباشرة إلى أجواء ما بعد الحرب.

وبرغم أن الطبعة العربية تحوى تفاصيل أكثر، فقد انفردت الإنجليزية بمعلومات مهمة وبخاصة فى شأن إلحاح عبد الناصر على الملك حسين أن يسعى إلى حل سلمى عبر الولايات المتحدة. كما تنفرد بالمعلومات الخاصة باللقائين السريين اللذين عقدهما الملك حسين مع أبا ايبان وزير خارجية اسرائيل فى نيويورك عقب حرب ١٩٦٧، حيث لاحظ العاهل الأردنى أنه أكثر انفتاحا من معظم أعضاء حكومته الآخرين. وهنا، يوضح المؤلف أن آراء ابا ايبان كانت منسجمة مع موقف رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتها ليفى اشكول، الذى أكد للأمريكيين أن إسرائيل ليست لديها طموحات استعمارية.

ويبنى على ذلك استنتاجا مؤداه أن الدبلوماسية الأمريكية بعد حرب ١٩٦٧ قامت على افتراض زائف، وهو أن توجهات اشكول وابا ايبان تعبر عن موقف الحكومة الإسرائيلية كلها.

وتخلو الطبعة العربية أيضا من المعلومات التى وردت فى الإنجليزية عن اتصالات علنية جرت فى ذلك الوقت، وأهمها زيارة محمود فوزى إلى واشنطن. وقد اكتسبت تلك الزيارة أهمية خاصة لأنها كانت تعكس رغبة عبد الناصر فى تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة عقب تولى نكسون الرئاسة فى يناير ١٩٦٩ .

ويضيف المؤلف، فى الطبعة الإنجليزية، أن فرصة سنحت لعبد الناصر عندما توفى ايزنهاور فى مارس من العام نفسه، فقرر ايفاد محمود فوزى لحضور الجنازة، ويبقى فى واشنطن أياما عدة للتعرف على رؤى الإدارة الجديدة للوضع فى المنطقة. ويشير إلى أن فوزى لقى ترحيبا واضحا من نيكسون ولكنه لم يحصل على جديد. ولذلك عاد إلى القاهرة متشائما ولم يكن لديه ما يقدمه إلى عبد الناصر، الذى كان يعول كثيرا على نيكسون باعتباره كان نائبا لايزنهاور فى الإدارة التى مارست ضغطا على اسرائيل للانسحاب من سيناء فى عام ١٩٥٦. ويضيف الأستاذ هيكل سببا آخر لتفاؤل المصريين بتولى نيكسون الرئاسة وهو أنه كان زار مصر عام ١٩٦٣، وترك انطباعا ايجابيا بالرغم من أنه لم يكن فى موقع رسمى. فقد عبر عن ندمه بسبب قرار ايزنهاور ودالاس عدم مساعدة مصر فى بناء السد العالى.

كما تحوى الطبعة الإنجليزية تفاصيل مهمة، لا ترد فى العربية، عن التباين بين موقف نيكسون وكيسنجر من ناحية وموقف روجرز من ناحية أخرى، وبخاصة عقب التوصل إلى وقف اطلاق النار بين مصر وإسرائيل بموجب المبادرة التى حملت اسم روجرز. وتوضح الطبعة الإنجليزية أن الرئيس ومستشاره لشؤون الأمن القومى بدءا عقب وقف اطلاق النار فى ٧ أغسطس ١٩٧٠، فى ادارة أزمة الشرق الأوسط بعيدا عن وزير الخارجية. ويرى المؤلف أن هذا كان تحولا فى موقف نيكسون، الذى كان بدأ عهده بتفويض روجرز فى التعاطى مع الأزمة، فيما كان الرئيس الأمريكى مشغولا بحرب فيتنام. كما كان

نيكسون فضل، فى البداية أيضا، ابعاد كسينجر عن أزمة الشرق الأوسط خشية أن تكون ديانته اليهودية سببا فى تعقيد الموقف. ويشير المؤلف إلى أن كسينجر نفسه كان يميل إلى الابتعاد موضحا الفارق بينهما : فكان روجرز يعتقد أن السلام فى الشرق الأوسط ضرورى للمصالح الأمريكية وكان يسعى إلى اتفاق عربى - إسرائيلى شامل، فيما كان كسينجر مع من يعتبرون أزمة الشرق الأوسط أحد مظاهر العلاقات الأمريكية السوفياتية، مما يعنى أن مصالح الولايات المتحدة تظل مرتبطة باسرائيل طالما بقيت مصر وسورية على صلة وثيقة مع الاتحاد السوفياتى.

# الفصل السادس

# من الخلاف مع السادات إلى زيارة القدس

تخلو الطبعة العربية لكتاب "المفاوضات السرية" من تفاصيل السياسة التى انتهجها الرئيس عبد الناصر عقب حرب ١٩٦٧ وخلقت الأجواء التى مهدت للاتصال والتفاوض مع إسرائيل بعد ذلك فى عهد الرئيس السادات باستثناء قبول مبادرة روجرز فى يونيو ١٩٧٠ . وغابت عنها تفاصيل دور عبد الناصر فى حض الملك حسين على السعى لدى الولايات المتحدة لإجراء مفاوضات واستعداده لتوفير غطاء سياسى لأى اتصالات سرية يجريها الأردن مع الإسرائيليين بخلاف الطبعة الإنجليزية التى كشفت عن هذا الدور، كما سبقت الإشارة.

كما تقفز الطبعة العربية على الفترة التالية لقبول عبد الناصر مبادرة روجرز وإن كانت تتطرق فى عجالة إلى ما ورد فى الطبعة الإنجليزية عن ردة الفعل الفلسطينية والتى بلغت ذروتها فى الأردن مما دفع الملك حسين إلى اتخاذ مزيد من الإجراءات لحماية نظامه.

وحرص الأستاذ هيكل فى معالجته الغضب الفلسطينى على أن يبرز فى الطبعة الإنجليزية الفارق بين الموقفين المصرى والأردنى لكى يؤكد ضمنيا أن

عبد الناصر ظل أكثر حرصا على الفلسطينيين على الرغم من أنه هو الذى دفع حسين إلى إجراء اتصالات سرية مع إسرائيل من قبل.

فهو يوضح فى الطبعة الإنجليزية أن عبد الناصر وقف مع منظمة التحرير عندما حاول الملك حسين تصفيتها. ويشير إلى أن الرئيس المصرى كان مقتنعا بأن النضال يجب أن يستمر لأنه كان السبيل الوحيد لإرغام إسرائيل على الإنسحاب ويحرص على إبراز تحذيره للملك حسين خلال لقائهما فى الاسكندرية فى أغسطس ١٩٧٠ من إساءة فهم قبول مصر مبادرة روجرز واتخاذه ذريعة لتصفية منظمة التحرير.

ولكن تخلو الطبعة الإنجليزية من أية إشارة إلى دور المؤلف نفسه فى التعاطى مع الأوضاع المترتبة على مبادرة روجرز وهو الدور الذى روى قصته تفصيلا فى الطبعة العربية. فقد تصادف أنه بعد أن أبدت مصر موافقتها على هذه المبادرة كان وزير الخارجية حينئذ محمود رياض فى رحلة عمل لمدة أسبوعين فى الاتحاد السوفياتى وبعض دول أوروبا الشرقية. وتولى هيكل إلى جانب عمله وقتها كوزير للارشاد القومى أعمال وزير الخارجية بالنيابة. وأهم ما يرويه هو أنه طالب فى ذلك الوقت بإعادة تكوين مجلس الأمن القومى الذى كان يضم عددا محدودا من كبار المسؤولين المصريين لا يزيد عددهم على سبعة أو ثمانية. ويفسر طلبه بأن المرحلة التى بدأت بمبادرة روجرز كانت دقيقة وحساسة وكان لابد من مواجهتها بأكبر قدر من الكفاءة والخبرة. وقد استجاب عبد الناصر وتقرر توسيع المجلس. كما تم

إشراك "مجموعة من نجوم الدبلوماسية المصرية" فى مناقشات حرة مع عبد الناصر. ويكشف المؤلف أنه قام باختيار عشرة من أركان وزارة الخارجية التقوا عبد الناصر فى ٩ أغسطس ١٩٧٠ وكان من بينهم أسامة الباز الذى كان مستشارا فى وزارة الخارجية وقتها والذى طلب إليه هيكل أن يكتب محضرا فوريا لأعمال الجلسة.

وعندما ينتقل المؤلف إلى تولى السادات الرئاسة عقب رحيل عبد الناصر فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ يمر فى عجالة على سياسة الرئيس "الجديد" وقتها تجاه إسرائيل مشيرا إلى أنه تناول تلك الفترة بوثائقها فى كتابه "أكتوبر ١٩٧٣ السلاح والسياسة" الذى صدر فى عام ١٩٩٣.

ويقود مجمل تحليله لهذه الفترة (أكتوبر ١٩٧٠ - أكتوبر ١٩٧٣) إلى استنتاج أنها مهدت للتحول الذى حصل فى السياسة المصرية تجاه الصراع مع إسرائيل عقب حرب العام ١٩٧٣ . ويعنى ذلك إقرارا ضمنيا بأنه لم يستطع أن يؤثر على موقف السادات فى النهاية على الرغم من أنه كان من أقرب الناس إليه فى تلك الفترة. وهو يرى أن السادات بحكم تكوينه كان "يعتمد باستمرار على رجل قريب منه يتأثر به ويأخذ برأيه فيما يكون قد غاب عنه معرفة أو تجربة".

ويشير الأستاذ هيكل فى الطبعتين إلى أنه ظل قريبا من السادات حتى خريف عام ١٩٧٣ . ولكن تنفرد الطبعة الإنجليزية بقصة اتصال السادات به

هاتفيا فى مساء يوم ٦ أكتوبر ليطلب إليه إعداد نقاط خطاب يوجهه إلى الشعب عبر التليفزيون. (لا يقول الأستاذ هيكل صراحة إنه هو الذى كان يكتب خطب السادات حتى ذلك الوقت).

ويظهر من روايته لقصة هذا الاتصال الهاتفى أنه كان قادرا على اقناع السادات فى بعض الأمور. فعندما طلب إليه الرئيس الراحل إعداد الخطاب سأله هيكل : ماذا تريد أن تقول فأجاب بأنه يريد أن يقول للناس إننا انتصرنا فى حرب الساعات الست.

وكانت نصيحة هيكل هى الإنتظار لأن الحرب لم تكن انتهت بل هى بالكاد كانت بدأت. ووفق روايته كان السادات يخشى أن "يسرق الرئيس الأسد المجد". ويوضح أن الرئيس الراحل قبل نصيحته بعد تردد. وترتب على ذلك أن تأجل خطاب السادات لمدة عشرة أيام حيث القاه فى يوم ١٦ أكتوبر أمام مجلس الشعب. ولكن عندما يشير فى الطبعة الإنجليزية أيضا إلى هذا الخطاب لم يوضح ما إذا كان هو الذى كتبه. ويكتفى بأنه فيما كان السادات يلقى الخطاب الذى أعلن فيه استعداد مصر لوقف إطلاق النار إذا انسحبت إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ كانت وكالات الأنباء تنقل عن رئيسة وزراء إسرائيل جولدا مائير أن قواتها تقاتل فى شرق وغرب قناة السويس.

ويضيف أنه سأل السادات لدى مغادرته مقر المجلس عن كلام مائير. ويوحى بأن الرئيس الراحل لم يكن يعرف أن الإسرائيليين وصلوا إلى الضفة الغربية لقناة السويس (ثغرة الدفرسوار) وإنما كان يعتقد أن مائير تحاول صرف الانتباه عن خطابه.

ويتكامل تحليلا المؤلف لنتائج الحرب ١٩٧٣ فى كل من الطبعتين. فالتحليل فى مجمله يفيد أن جهود السلام التى بدأت فور وقف القتال كانت نتاج ما أسفرت عنه الحرب بعد تراجع ثقة الإسرائيليين فى قدراتهم وتخلص العرب من الشعور بالمهانة. وإذا كان التحليل فى الطبعة العربية ينوه بأن ما حصل بعد الحرب كان نتاج تعجل السادات تأسيس شرعية مستقلة عن شرعية عبد الناصر تستند إلى روح أكتوبر وتحقق حلا سلميا مما وضع مصير الأزمة بين يدى هنرى كيسنجر، فهو يشير فى الطبعة الإنجليزية إلى ما دار من جدل حول نتائج الحرب منوها بأن النصر الذى حققه العرب كان "سياسيا ونفسيا" فى المقام الأول وبخاصة بعد عبور قوات إسرائيلية إلى غرب قناة السويس.

ويتناول المؤلف أحداث عام ١٩٧٧ الذى شهد نقطة التحول الرئيسية فى سياسة السادات بدءا من قصة مظاهرات ١٨ و ١٩ يناير ١٩٧٧ والتى يعتبرها من العوامل الرئيسية التى قادت السادات إلى القدس فى نوفمبر من العام نفسه. وقد وردت هذه القصة بشكل أكثر تفصيلا فى الطبعة العربية. فيشير الأستاذ هيكل فى هذه الطبعة إلى أن رئيس الوزراء المصرى وقتها ممدوح سالم وليس السادات هو الذى بادر إلى طلب تدخل الجيش للسيطرة على الموقف وأن وزير الدفاع عبد الغنى الجمسى اعتذر لسببين : أولهما هو أن قرار انزال الجيش يجب أن يصدر عن القائد الأعلى (السادات) وليس عن وزير الدفاع أو مجلس الوزراء مجتمعا. والثانى هو أنه الجمسى ووزير الدفاع السابق أحمد اسماعيل كانا اتفقا مع

السادات على تجنب نزول الجيش لمواجهة أية مشكلة داخلية. وعندئذ طلب سالم إلى السادات إصدار الأمر بإنزال الجيش وإلا تكررت مأساة حريق القاهرة فى يناير ١٩٥٢ .

ولكن الطبعة الإنجليزية التى تروى القصة باختصار ودون تفاصيل لا تتضمن أن رئيس الوزراء هو الذى بادر بأن طلب إلى وزير الدفاع تدخل الجيش وإنما ورد فيها أن السادات أمر الجمسى مباشرة بذلك. وورد فى هذه الطبعة أيضا أن الجمسى ذكر السادات بأنه كان وعد بعدم استخدام الجيش فى مشكلة داخلية فى حين جاء كلام الجمسى هذا فى الطبعة العربية ضمن حواره مع سالم وليس مع السادات.

كما تبدو الطبعة العربية أكثر دقة فى شأن تاريخ صدور قرارات بزيادة الأسعار (١٧ يناير) فى حين ورد فى الإنجليزية أن القرار كان فى يوم ١٨ يناير. وتختلف الطبعتان كذلك فى تبيان كيف توصل السادات إلى تفسير المظاهرات بأنها نتاج مؤامرة شيوعية. فقد جاء فى العربية أن "أول ما خطر فى بال السادات هو أنها مؤامرة شيوعية رتبتها موسكو بواسطة أعوانها على الرغم من أنه كان يعرف عن موقف الاتحاد السوفياتى ما يكفى لدرء شكوكه فيه". أما فى الطبعة الإنجليزية فقد ورد أن مجموعة من مستشارى السادات أقنعوا أنفسهم بوجود مؤامرة شيوعية وأن الرئيس الراحل قبل هذا التفسير بعد أيام وأمر باعتقال حوالى ١٢٠٠ شخص. ويتعارض ذلك مع ما ورد فى الطبعة العربية عن أن السادات

عقد ثلاثة اجتماعات لمجلس الأمن القومى مصرا على أن ما حصل مؤامرة فى مواجهة آخرين من المشاركين فى الاجتماعات حاولوا عرض وجهة نظر أخرى مفادها أن المشكلة سياسية اجتماعية. ولكن السادات - تضيف الطبعة العربية - لم يكن مستعدا لقبول وجهة النظر هذه وكان يريد من أجهزته أن تجد الأدلة على صحة ظنونه.

وتختلف معالجة المؤلف فى الطبعتين لتأثير فوز ليكود ومناحم بيجين فى الانتخابات الإسرائيلية التى جرت فى مايو ١٩٧٧ وهو ما يسميه "الزلزال الانتخابى" فى الإنجليزية و"الصدمة لكل المهتمين بشؤون الأوسط على اتساع العالم" فى العربية. فتقدم الطبعة الإنجليزية تعريفا بتاريخ بيجين وكيفية تشكيل ليكود عام ١٩٧٣ عبر اندماج حزب حيروت مع أحزاب يمينية أخرى. ويتحدث عن الجدل الذى دار حول ما إذا كان الاختلاف بين اليمين واليسار فى إسرائيل مهما بالنسبة إلى الصراع مع العرب. ويميل فى تحليله إلى وجود تداخل بينهما مشيرا إلى أن فترات التوسع الإسرائيلى الكبرى كانت فى عهد حكومات عمالية.

وتركز الطبعة العربية على أن فوز ليكود كان مفاجئا. ويذكر المؤلف معلومة مهمة وهى أن "الاستخبارات الأمريكية ساعدت بطريقة ما فى إثراء صندوق الحملة الانتخابية لحزب العمل حتى لا تحدث مفاجآت غير متوقعة. وعلى الرغم من ذلك تلقى الجميع مفاجأة لم يتحسبوا لها وهى فوز ليكود".

ولكن أهم جديد يقدمه المؤلف فى تناوله لأحداث عام ١٩٧٧ يتعلق بتفسيره للاشتباكات التى حصلت بين مصر وليبيا فى يوليو من العام نفسه إذ يتهم السادات صراحة بأنه خطط لغزو ليبيا وينوه بنصيحة إسرائيلية كان تلقاها عبر الوفد المصرى فى مؤتمر جنيف فى نهاية عام ١٩٧٣ . وهذا هو أول اتهام يتعرض له السادات بوجود تدخل إسرائيلى فى نزاعه مع القذافى بعد ١٩ عاما على الحدث.

وتختلف الطبعتان فى تحديد كيف تبلورت فكرة "غزو ليبيا" على حد تعبير المؤلف لدى السادات. فقد جاء فى الإنجليزية أن الفكرة طرأت للسادات عقب تظاهرات ١٨ و ١٩ يناير. ويستند المؤلف فيها إلى أن السادات لم يكن متأكدا مما ينبغى عمله بعد هذه المظاهرات وأنه كان قلقا من احتمال نشوب اضطرابات أخرى ولذلك كان فى حاجة إلى إيجاد هدف جديد يشغل الشعب ويصرف انتباهه عن المشاكل الاقتصادية. ويضيف المؤلف أن السادات استعاد الاقتراح الذى كان الإسرائيليون عرضوه خلال مؤتمر جنيف وهو أن مصر تستطيع حل كل مشاكلها إذا سيطرت على حقول النفط الليبية.

أما الطبعة العربية فقد ورد فيها أن فكرة "غزو ليبيا" طرأت للسادات بعد صدمة فوز بيجين وليس بعد مظاهرات يناير. فقد "بدا له أن انتظار بيجين حتى يغير موقفه يقتضيه وقتا لا يستطيع أن يتحمل مرور أيامه وشهوره وربما سنينه".

وهنا يوضح المؤلف فى هذه الطبعة أن السادات

"توصل فجأة إلى حل بالغ الغرابة. فقد خطر له أن يغزو ليبيا وفى ذهنه أن يحتل ولاية برقة الشرقية وفيها معظم منابع البترول الليبى". وفيما ورد فى الطبعة الإنجليزية أن السادات استعاد فى ذهنه الاقتراح الإسرائيلى الذى كان منسجما مع رغبته فى حل مشاكله عن طريق تحرك دراماتيكى تشير الطبعة العربية إلى تأثير هذا الاقتراح فى صورة سؤال : "هل تذكر السادات الاقتراح الإسرائيلى الذى قدم إلى الوفد المصرى أثناء مؤتمر جنيف فى آخر عام ١٩٧٣ وبداية ١٩٧٤ . وإذا كان ذلك فهل تذكره السادات من تلقاء نفسه أو أن أحدا أعاد تذكيره به".

وتختلف الطبعتان كذلك فى عرض الاقتراح الإسرائيلى نفسه. ففى الطبعة الإنجليزية أن الكولونيل دوف زيون عضو الوفد الإسرائيلى عرض أن مصر تضيع الوقت فى التركيز على قضية خاطئة وأن عليها تحويل اهتمامها صوب ليبيا لأن السيطرة على حقول النفط الليبية تكفل حل كل مشاكلها الاقتصادية مؤكدا أن إسرائيل لن تتدخل ضد أى تحرك مصرى لتحقيق هذا الهدف.

وتوضح الطبعة العربية التى تنفرد بتفاصيل الاقتراح الإسرائيلى كاملا أن زيون عرضه على عضوين فى الوفد المصرى وأن أحدهما رد عليه مؤكدا أن علاقات مصر مع العرب لا تقوم على أطماع وأن قضية فلسطين بالنسبة إليها هى مسألة اقتناع والتزام.

وفيما جاء فى الطبعة العربية أن الوفد المصرى لم

يعرف كيف يتصرف فبعث التفاصيل كاملة إلى القاهرة ورد فى الإنجليزية أن السفير حسين خلف منسق الوفد أرسل برقية فى شأن هذا الاقتراح إلى القاهرة فى يوم ٢٧ ديسمبر ١٩٧٣ فى حين تشير الطبعة العربية إلى أن الاقتراح كان فى يوم ٧ يناير ١٩٧٤ . وربما يمكن تفسير ذلك على أساس أن الاقتراح مر فى مرحلتين : الأولى كانت فى صورة حديث شفهى والثانية أخذت شكل مذكرة مكتوبة قدمها الوفد الإسرائيلى.

وتتفرد الطبعة العربية بأن السادات عندما تلقى المذكرة الإسرائيلية وضع بقلمه خطين تحت فقرة فى البند الثالث وهى الفقرة التى قدرت دخل ليبيا فى السنوات الخمس التالية بحوالى ٣٦ بليون دولار.

ويرى المؤلف أن فشل ما يسميه "غزو ليبيا" كان بمثابة الضربة الثالثة التى تعرض لها السادات فى عام ١٩٧٧ بعد مظاهرات يناير وفوز ليكود. ولكنه يشير فى العربية إلى أن الضربات الثلاث خلقت ما يسميه "حالة من الحصار على السادات" فراح يبحث فى عصبية عن مخرج الأمر الذى قاده إلى القدس بعد أن فشلت المحاولات الأمريكية لإعادة عقد مؤتمر جنيف.

وتشير الطبعتان إلى أن السادات كان متحفظا على فكرة تشكيل وفد عربى موحد إذا أعيد عقد المؤتمر. ولكنه يفسر هذا التحفظ فى الطبعة الإنجليزية دون العربية بأن السادات كان يخشى أن يؤدى ذلك إلى تقييد حريته فى التفاوض.

كما تخلو الطبعة العربية من تفسير مهم ورد فى الإنجليزية لفشل محاولات عقد مؤتمر جنيف وهو أن بيجين لم يكن مقتنعا بالحاجة إلى دور أمريكى وكان يسعى إلى مفاوضات مباشرة مع العرب. وقد لجأ بيجين إلى الرئيس الرومانى شاوشيسكو وطلب إليه اقناع مصر بالمفاوضات المباشرة لأن إسرائيل لن تقبل أى ضغط أمريكى. كما طلب بيجين وفق الطبعة الإنجليزية أيضا أن يوقف العرب سياستهم التى تعول على ضغط أمريكى وقال : "إسرائيل ليست جمهورية موز يمكن أن يقرر الأمريكيون بالنيابة عنها. وأبلغ السادات أنه لا يوجد سبيل آخر غير التعاطى مباشرة مع إسرائيل". ويضيف المؤلف أن شاوشيسكو نصح السادات عدم الانتظار أربع سنوات أخرى حتى يتغير رئيس الوزراء فى إسرائيل. كما يعرض المؤلف، ولكن فى الطبعتين معا، لدور المغرب فى الترتيب لأول اتصال مباشر بين مصر وإسرائيل. والاختلاف الوحيد هو أنه يروى فى الطبعة العربية القصة منذ أن اتصل بيجين بالملك الحسن الذى أبدى استعدادا لوضع أول لقاء بين الطرفين تحت رعايته. ويقول المؤلف فى هذه الطبعة إنه إلى أن أبلغ الحسن السادات بأن الممثل الإسرائيلى فى اللقاء سيكون وزير الخارجية موشى ديان لم يكن الرئيس المصرى يعرف أن العاهل المغربى التقى ديان بالفعل. ولكن يشير فى الإنجليزية إلى أن السادات تلقى رسالة من الحسن فى أول نوفمبر ١٩٧٧ جاء فيها أن ديان قام بزيارته وقدم عرضا من بيجين لإجراء محادثات سرية مع السادات. ولكن الرئيس المصرى فضل عقد لقاء على مستوى أقل.

والأرجح هو أن الطبعة العربية أدق لأن لقاء ديان التهامى تم فى ١٦ سبتمبر. وهو نفسه التاريخ الذى ورد فى الطبعة الإنجليزية الأمر الذى يتعارض مع ما جاء فيها عن أن اللقاء تم ترتيبه عقب عودة السادات من رومانيا وإيران إلى القاهرة فى أول نوفمبر.

كما أن القول فى الطبعة الإنجليزية بأن الحسن أبلغ السادات أن ديان زاره يعنى تأكيد حدوث اللقاء بين العاهل المغربى والوزير الإسرائيلى، فى حين يروى المؤلف واقعة اللقاء فى الطبعة العربية على عهدة ديان معتبرا أن صحتها ترجع إلى أن ديان لا يمكن أن يسعى إلى إغضاب الملك الحسن وأن الأخير لم يعلق على ما رواه ديان. ولكن ما ورد فى الطبعة الإنجليزية يوضح أن الحسن نفسه أكد حدوث اللقاء.

كما تبدو الطبعة العربية أكثر دقة من حيث تتالى الأحداث. فهى تروى أن السادات زار رومانيا والتقى شاوشيسكو عقب لقاء ديان التهامى فى المغرب فيما ورد فى الإنجليزية أن السادات زار شاوشيسكو قبل لقاء المغرب ثو زار إيران للتعرف على وجهة نظر الشاه الذى شجعه على إجراء اتصالات مباشرة مع إسرائيل.

ويشير الأستاذ هيكل فى الطبعة العربية إلى أن السادات تحدث عن نتائج لقاء ديان التهامى فى اجتماع عقده المكتب السياسى للحزب الوطنى الحاكم فى ١٢ نوفمبر ١٩٧٧ على الرغم من أن هذا الحزب لم يتأسس إلا فى أغسطس ١٩٧٨, وقد قصد المكتب السياسى لحزب مصر الذى كان هو الحزب الحاكم. فى ذلك الوقت.

ويكشف هيكل فى هذا السياق لأول مرة عن الأجواء التى طرح فيها السادات استعداده للذهاب إلى القدس موضحا أن الرئيس المصرى كان يتطلع إلى عقد اجتماع فى القدس الشرقية يحضره قادة الدول العربية المعنية بالصراع ورؤساء الدول ذات العضوية الدائمة فى مجلس الأمن. ويشير هيكل إلى أن فكرة الاجتماع الموسع فى القدس كان قد طرحها وزير الخارجية اسماعيل فهمى لكى يثنى السادات عن التفكير فى عقد لقاء ثنائى مع بيجين. وقد تحفظت الإدارة الأمريكية على فكرة اجتماع القدس الموسع لأنها "استهولت امكانية تنفيذها". ولكن تأخر ردها فيما يفسره المؤلف بأن "كارتر كان يريد أن يصوغ ردا مهذبا لا يصيب السادات بإحباط جديد". وترتب على ذلك أن تأخر الرد الأمريكى فى الوقت الذى كان السادات يريد الإعلان عن اقتراح اجتماع القدس الموسع فى افتتاح دورة البرلمان يوم ٧ نوفمبر مما أدى إلى تأجيل الافتتاح لمدة يومين. وكان موعد الخطاب الذى تأجل إلى يوم ٩ نوفمبر فى السادسة مساء. ولم يتلق السادات الرد السلبى من كارتر إلا قبل ساعتين من هذا الموعد.

ويوضح المؤلف فى الطبعة العربية أن السادات، الذى عبر للسفير الأمريكى لدى القاهرة عن شعور عجيب بخيبة الأمل لانعدام الخيال السياسى فى واشنطن، كانت مشاعره موزعة وهو فى طريقه لالقاء خطابه بين اقتناعه بفكرة لقاء القدس الموسع وبين اعتراض كارتر عليها. ويضيف أن ذلك ربما يفسر "الطريقة الملتبسة التى طرح بها استعداده للذهاب إلى القدس". وعندما نشر المؤلف هذا الكتاب لم يكن أحد

قد سبقه إلى معلومات من هذا النوع الأمر الذى يفند ادعاء البعض أنه فقد مصادر معلوماته عندما خرج من مؤسسة الأهرام. فهذه معلومات عن أحداث وقعت عام ١٩٧٧ أى بعد ثلاث سنوات على مغادرته "الأهرام" حصل عليها من داخل "المطبخ" السياسى للرئيس السادات. ولم يسبقه أحد إلى نشرها. وهذا فضلا عن قدرته الفائقة على تحليل ما يحصل عليه من معلومات واستكمال أى نقص قد يكون فيها من خلال مهارة عالية أيضا فى التفسير.

وهو يقدم فى الطبعة الإنجليزية تفسيرا آخر لقلق السادات حين كان ينتظر رد كارتر وإصراره فى النهاية على إعلان استعداده الذهاب إلى القدس وهو خوفه من تسريب نبأ لقاء ديان التهامى إلى الإعلام الإسرائيلى. ولم يكن السادات وفق هذا التفسير يريد أن يعرف المصريون عن هذا اللقاء من مصادر إسرائيلية. فكانت المفاجأة التى فجرها فى خطابه أمام البرلمان عندما قال أنه على استعداد للذهاب إلى أى مكان فى العالم بحثا عن السلام حتى لو كان هذا المكان هو القدس والكنيست الإسرائيلى.

ويصعب تصور أن تظل خبايا حدث ما مجهولة لأكثر من ١٥ عاما إلا حين يتعلق الأمر بالأستاذ هيكل الذى بقى قادرا على الوصول إلى "مطابخ" صنع الأحداث وعلى تقدير ما يستطيع الإحتفاظ به من معلومات لفترة معينة دون أن يخشى أن يسبقه غيره إلى نشرها. كما أن لديه فى النهاية قدرته الفائقة على التحليل والتفسير وربط الأحداث ببعضها على نحو يتيح له أن يقدم شيئا جديدا عن حدث احتفظ

بمعلومات عنه لينشرها فى وقت لاحق حتى إذا سبقه غيره إلى الكتابة عنها. وهو فوق هذا كله صاحب أسلوب فريد يضفى على محتوى كتابته رونقا وجاذبية.

ولذلك فعندما نشر كتابه عن المفاوضات السرية بعد ١٩ عاما على زيارة الرئيس السادات إلى القدس المحتلة فى نوفمبر ١٩٧٧ كان لديه بقية من أسرار وخبايا هذا الحدث المفصلى فى تاريخ منطقة الشرق الأوسط.

ويكشف الأستاذ هيكل، فى الطبعة الإنجليزية لهذا الكتاب، أن السادات ارتدى القميص الواقى من الرصاص خلال هذه الزيارة للمرة الأولى فى حياته. ويشير فى الطبعة العربية إلى أنه ارتداه فى آخر لحظة "خوفا من رصاصة عربية طائشة".

كما يكشف فى الطبعة الإنجليزية وحدها أن السادات اتفق مع بيجين خلال الزيارة على ثلاث نقاط هى أنه لن تكون هناك حروب أخرى بين البلدين وأن المحادثات تهدف إلى استعادة مصر سيادتها على سيناء وأن الاتفاق سيتضمن نزع سلاح معظم سيناء.

وهو يرى أن هذا الاتفاق كان تعبيرا عن أن السادات أخذ خطوة فى اتجاه اتفاق مصرى إسرائيلى منفرد الأمر الذى يتعارض مع الاعتقاد السائد فى أن الرئيس المصرى الراحل ظل يأمل لشهور بعد زيارة القدس فى إقناع الأردن بالمشاركة فى المفاوضات.

ولكن ما يمكن استخلاصه من الطبعة العربية هو أن السادات لم يكن حسم مسألة الإتفاق المنفصل إلا عشية مفاوضات كامب ديفيد فى سبتمبر ١٩٧٨, كما يروى المؤلف أن كارتر نفسه لم يصل إلى أنه لا مجال لغير اتفاق منفرد إلا فى أغسطس ١٩٧٨, ويضيف أن السادات الذى قبل الدعوة إلى كامب ديفيد بشرط أن تدخل واشنطن كشريك فعلى فى المفاوضات بدأ وقتها يواجه نفسه بأنه "لا يستطيع أن يرهن موقف مصر ويتركه تحت رحمة الأسد أو عرفات أو القذافى أو غيرهم وإنما هو يريد أن يتحرك. وهو بحركته لا يصنع سلاما منفردا وإنما هو يصنع النموذج المثالى الذى يمكن أن يحتذيه باقى العرب عندما يقررون فى يوم من الأيام أنه ليس أمامهم غير أن يلحقوا به".

كما يفهم قارئ الطبعة الإنجليزية من رواية المؤلف لأحداث ما بعد زيارة القدس أن ما اتفق عليه السادات مع بيجين لم يتضمن أى تفاصيل فى شأن الإنسحاب من سيناء. فقبل أن يتوجه رئيس الوزراء الإسرائيلى إلى الإسماعيلية لإجراء محادثات مع السادات فى ديسمبر ١٩٧٧ كان قد أعد خطة وعرضها على الأمريكيين تتضمن استثناء مستوطنات سيناء ومنطقة شرم الشيخ الإستراتيجية من الأراضى التى ستعيدها إسرائيل إلى مصر. ولما طرح بيجين هذه الخطة خلال محادثات الإسماعيلية حصل توتر وشعر الوفد المصرى فى المحادثات بخيبة أمل.

وكان السادات يعول فى ذلك الوقت على إمكان أن يقوم وزير الدفاع الإسرائيلى عزرا وايزمان بدور فى تليين موقف بيجين. ويعطى الأستاذ هيكل اهتماما

لعلاقة السادات مع وايزمان فى الطبعة العربية أكثر من الإنجليزية التى اكتفى فيها بإشارة إلى أن الرئيس المصرى سأل عن وزير الدفاع الإسرائيلى عندما لاحظ غيابه عن الإستقبال فى المطار وأن الأخير تأثر بهذا الإهتمام.

أما الطبعة العربية فقد وردت فيها تفاصيل كثيرة يتعارض بعضها مع ما ذكره وايزمان فى مذكراته. إذ تروى الطبعة العربية أن وايزمان بلغه سؤال السادات عنه فتوجه على عكاز (كان قد أصيب فى حادث سير قبل الزيارة بأيام) إلى الجناح الذى نزل فيه السادات فى فندق الملك داوود .. ولكن يشير وايزمان فى مذكراته إلى أنه لم يقابل السادات إلا بعد ظهر اليوم التالى لوصوله إلى القدس وبعد أن ألقى خطابه أمام الكنيست. أما حين وصل السادات إلى الجناح رقم ٦٢٢ فى فندق الملك داوود، كان وايزمان حسب مذكراته فى الجناح رقم ١٢ فى مستشفى تل هشومر. وكان أطباؤه يبذلون جهودا فائقة لتأهيله للتوجه إلى الكنيست فى اليوم التالى بعد أن أصر على حضور خطاب السادات مهما كانت النتيجة. وهو ذهب إلى الكنيست محمولا على كرسى متحرك وليس فقط معتمدا على عكاز. ويروى وايزمان أنه شاهد السادات للمرة الأولى فى الكنيست وليس فى الفندق. ويصف تلك اللحظة بقوله : "دخل السادات وبدا لى كما يبدو فى التليفزيون تماما ما عدا لون بشرته فقد كان أكثر سوادا".

أما اللقاء الذى ورد فى الطبعة العربية أنه تم فى فندق الملك داوود عقب وصول السادات فيروى

وايزمـــان أنه حـصل فـى مكتب رئيس الوزراء عـقب انتهاء جلسة الكنيست. ويقول "تدحرجت خارجا من مـبنى الكنيـست على الكرسـى المتـحـرك وفـجـأة استدعيت الى مكتب رئيس الوزراء وأبلغت أن الرئيس المصـرى يريد رؤيتى ربما لأننى لم أشـتـرك فى استقباله فى المطار".

وفى رواية الأسـتـاذ للدور الأمـريكى فى حل الخـلافات بين مصر وإسـرائيل عقب زيارة القدس يقدم فى كل من الطبعتين تفسيرا متكاملا لإقدام كارتر على التدخل المباشر ودعوته السادات وبيجين إلى كامب ديفيد. فهو يركز فى الطبعة العربية على دوافع انتخابية لدى كارتر من ناحية وعلى قلقه من موقف بيجين من ناحية أخرى مشيرا إلى أن هذا القلق تزايد بعد أن أكد بيجين فى اجتماع عقده فى نهاريا مع زعماء المؤسسات اليهودية الأمريكية أنه غير مستعد لتقديم تنازلات وطلب إليهم أن لا يكونوا عنصرا ضاغطا عليه.

أما فى الطبعة الإنجليزية فيركز على قلق كارتر من تدهور الأوضاع فى إيران وتوقعه قرب إطاحة الشاه الذى كانت الولايات المتحدة تعتمد على نظامه فى القيام بدور رجل البوليس الإقليمى. ويشير إلى أن الرئيس الأمريكى كان فى حاجة إلى ترتيبات أمنية بديلة تقوم فيها مصر وإسرائيل بدور محورى لضمان استقرار منطقة الشرق الأوسط. ويؤكد المؤلف على هذا المعنى بعد ذلك فى الطبعة الإنجليزية أيضا عندما يتطرق إلى جولة وزير الدفاع الأمريكى وقتها هارولد براون فى المنطقة عقب خروج الشاه من إيران

فى يناير ١٩٧٩ . ويوضح أن الهدف من الجولة كان البحث فى كيفية إعادة تنظيم السياسة الأمنية الأمريكية فى الشرق الأوسط فى ظل الوضع الجديد فى إيران. ويروى أن التوصية الأساسية التى قدمها براون لدى عودته إلى واشنطن كانت أن يعمل كارتر على تسريع الجهود للتوصل إلى معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل.

وهو يروى تفصيلا فى الطبعة العربية قصة التغيير الوزارى الذى أجراه السادات عقب عودته من كامب ديفيد. ويكشف أن السادات عهد بتشكيل الوزارة الجديدة إلى نائبه فى ذلك الوقت حسنى مبارك الذى بدأ يجرى اتصالات فى هذا الشأن. ولكن السفير الأمريكى لدى القاهرة هيرمان ايلتس ذهب إلى السادات ونصحه "بعدم تعريض منصب نائب رئيس الجمهورية لمشاكل العمل التنفيذى لأنها قد تؤثر على مصداقيته. ولأنه هو الاحتياطى الضرورى للرئيس فإن المحافظة عليه مطلوبة". كما نصح ايلتس "بالبحث عن مرشح آخر مارس المسؤولية التنفيذية من قبل ويكون قابلا للتغيير فى أى وقت عندما تقتضى ظروف سياسية ذلك". فكان أن قرر السادات إسناد تشكيل الوزارة إلى الدكتور مصطفى خليل الذى أبدى دهشة برغم أن الرئيس الراحل كان ألمح إليه قبل شهور برغبته فى إسناد رئاسة الوزارة إليه.

وفيما تتوسع الطبعة العربية فى رواية هذه القصة تقتصر الإنجليزية على إشارة إلى أن السادات عزل رئيس الوزراء ممدوح سالم وعهد إلى نائبه حسنى

مبارك بتشكيل الوزارة. ولكن بعد ٢٤ ساعة غير رأيه (دون ذكر نصيحة السفير الأمريكى لدى مصر) وعهد إلى مصطفى خليل الذى جرى تعريفه فى هذه الطبعة بأنه كان نائبا لرئيس الحزب الحاكم. والصحيح هو أن خليل تولى منصب نائب رئيس الحزب بعد ذلك بسنوات فى حين كان حسنى مبارك هو الذى شغل المنصب فى ذلك الوقت عام ١٩٧٨.

وعندما يصل الأستاذ إلى حفلة توقيع معاهدة السلام العربية الإسرائيلية فى البيت الأبيض فى ٢٦ مارس ١٩٧٩ نجد بعض التمايز بين الطبعتين فى مدى شدة النقد الذى وجهه إلى السادات. ففى الطبعة الإنجليزية تبدو تلك المعاهدة باعتبارها النتيجة المنطقية لرحلة بدأها السادات منذ حرب ١٩٧٣ وأدت إلى تحطيم الـ "تابو" فى العقل المصرى ولكن ليس فى العقل العربى كله. أما فى الطبعة العربية فقد جاء موقف المؤلف أكثر حدة حيث اتهم السادات بأنه "لم يعط من أرصدة مصر وحدها وإنما أعطى من الرصيد العربى كله. وأوله تلك الصلة على الجسر البرى بين مصر والشام الزاوية الاستراتيجية الكبيرة لجنوب شرق البحر الأبيض وهى مطلب الفاتحين وحلم القوميين. وهو فى نهاية هذا كله لن يحصل على ما أراد أو قصد. حصل على صلح منفرد بين مصر وإسرائيل". ويحرص المؤلف فى هذه الطبعة بالذات على تذكير قارئها بالفارق بين عبد الناصر والسادات عبر الإشارة إلى أن الصلح المنفرد الذى حصل عليه الأخير "كانت إسرائيل تطلبه من أول يوم لقيامها وتكرره بعد كل صدام مسلح كبير أو صدام

سياسى واسع. وكان طلبها له سرا وعلنا ومن أى سبيل وعن طريق أى وسيط".

وبالرغم من أن الطبعة العربية لكتب الأستاذ هيكل هى التى تحوى تفاصيل أكثر عادة نجد استثناء من هذه القاعدة فى قصة اغتيال الرئيس الراحل أنور السادات.

فالطبعة الإنجليزية تروى هذه القصة بقدر أكبر من التفصيل. ومن أهم ما يذكره المؤلف هو أن غياب الملايين التى كانت خرجت لوداع عبد الناصر فى عام ١٩٧٠ عن جنازة السادات فى عام ١٩٨١ دليل على عدم شعبيه فى بلده مشيرا إلى أنه حظى بشعبية أكثر لدى البيت الأبيض والإعلام الغربى. ويعتبر أن بيجين ساهم فى قتل السادات من منظور أنه لو كان قدم بعض التنازلات لربما أدى ذلك إلى الحفاظ على حياة الرئيس الراحل.

وقد غاب السادات فى الوقت الذى كان التوتر يتصاعد بين الإسرائيليين ومنظمة التحرير وبعد أن كان نقل تحذيرا إلى عرفات من عملية عسكرية إسرائيلية متوقعة. وهو تحذير يقول المؤلف أن القدر لم يمهل السادات لكى يكرره. ولكن تدل روايته لمسار الأحداث فى ذلك الوقت على أن قيادة منظمة التحرير تلقت تحذيرا آخر من القيادى اليهودى الأمريكى ستيف كوهين الذى كان السادات رتب قبل غيابه قناة اتصال بينه وبين القيادى الفلسطينى سعيد كمال.

ويروى المؤلف فى الطبعتين قصة لقاء كوهين وكمال فى القاهرة فى نهاية أبريل ١٩٨٢ . فقد طلب كوهين ترتيب لقاء عاجل له مع عرفات وأبو اياد فسأله كمال : لماذا لا تلتقى أبو جهاد أيضا فرد كوهين بأنه يعرف أبو جهاد والتقاه مرة فى عمان بتوصية من الدكتور هشام شرابى الذى كان يتصل بوزارة الخارجية الأمريكية باعتباره مستشار أبو جهاد الخاص. هذا الرد الذى ورد فى الطبعة العربية اقتصر فى الإنجليزية على : "لا لقد سبق أن تعرفت على أفكاره". ولم ترد فى الطبعة الانجليزية الإشارة التى وردت فى العربية إلى دور شرابى فى ترتيب لقاء بين كوهين وأبو جهاد.

كما أن الصياغة فى الإنجليزية لا تؤكد أنه حصل لقاء بينهما وإن كان فى الإمكان استنتاج ذلك من إشارة أخرى إلى أن سعيد كمال اندهش عندما عرف أن كوهين لديه اتصالات مع أبو جهاد . ولذلك فعندما نفى هشام شرابى ما نسب إليه من أنه ساهم فى ترتيب لقاء بين أبو جهاد وكوهين كان النفى منصبا على ما ورد فى الطبعة العربية لأن الطبعة الأخرى خلت من أى إشارة إليه.

وجاء نفى شرابى فى مقال نشره فى جريدة "الأهالى" يوم ٢٣ أكتوبر ١٩٩٦ . وهذا نفى لادعاء كوهين بطبيعة الحال لأن المؤلف روى ما قاله القيادى اليهودى الأمريكى الذى تقع المسؤولية عليه وحده. وقال شرابه أنه لا يعرف كوهين ولم يقابله يوما ولم يقدم إليه توصية من أى نوع أو بأى شكل. كما قال أنه لم يكن فى أى وقت مستشارا خاصا لأبو جهاد

ولم يكن على اتصال بوزارة الخارجية الأمريكية بهذه الصفة. وحرص شرابى على "تبرئة" أبو جهاد من "تهمة" الاتصال بكوهين وقال "كان أبو جهادمن قادة الثورة القلائل الذين عاشوا حياة ثورية كاملة. ولم تكن السياسة أو العلاقات الخارجية ضمن مسؤولياته. فقد تركز عمله فى شؤون الداخل أى فلسطينيى ال ٤٨ والضفة والقطاع. وكان هذا هو حقل تعاوننا عبر السنين من خلال المؤسسة التى أنشأناها فى واشنطن وفق القانون الأمريكى تحت اسم الصندوق الفلسطينى للثقافة والتنمية الاجتماعية. وكان لأبو جهاد دور مركزى فى نشاطات هذه المؤسسة التى تعرف اليوم باسم (صندوق القدس).

وأيا كان الأمر فلم تفلح أى اتصالات فى وقف الترتيب الإسرائيلى للعملية العسكرية الإسرائيلية التى استهدفت تدمير قواعد منظمة التحرير فى لبنان وحملت اسم "عملية سلامة الجليل" ومثلت أعنف وأوسع غزو اسرائيلى للبنان حتى الآن.

ولا تختلف قصة هذا الغزو وما ترتب عليه من اخراج منظمة التحرير من لبنان فى كل من الطبعتين إلا فى بعض تفاصيل قصة العرض الذى طلب شارون إبلاغه إلى عرفات بأن يذهب إلى الأردن ويقيم دولة فلسطينية هناك مشيرا إلى أنه "بخطاب واحد منى فى الإذاعة الإسرائيلية لن يجد الملك حسين أمامه إلا أن يحزم حقائبه ويغادر عمان. وتكون هذه هى الدولة الفلسطينية".

فقد ورد فى الطبعة العربية أن شارون قدم هذا

العرض فى رسالة بعث بها إلى مسؤول عربى فى القاهرة وطلب إبلاغها إلى عرفات فيما تشير الطبعة الإنجليزية إلى أن شارون طلب إلى وسيط مصرى اقناع عرفات بالعرض.

كما جاء فى الطبعة العربية أنه فى ظرف ساعات تلقى شارون من المسؤول الذى اتصل به فى القاهرة ردا مفاده أن الأردن ليس هو وطن الفلسطينيين مع تحذير من مخاطر استغلال معاناة الفلسطينيين لخلق تناقض أردنى فلسطينى دموى يتحول إلى مأساة. وتضيف هذه الطبعة أنه جرى ابلاغ الرد هاتفيا من القاهرة إلى شارون الذى علق عليه بألفاظ بذيئة طلب توصيلها إلى من بعث إليه هذا الرد (عرفات). وتقتصر الطبعة الإنجليزية على أن عرض شارون تم نقله إلى عرفات الذى طلب إلى الوسيط (المصرى) إبلاغ وزير الدفاع الإسرائيلى بأن الأردن ليس هو وطن الفلسطينيين.

وهكذا أنهى الغزو الإسرائيلى مرحلة كاملة كان لبنان خلالها هو المسرح الرئيسى للعمل الفلسطينى. وهى مرحلة اهتم المؤلف بها فى الطبعتين وأبرز بشجاعة تضخم نفوذ منظمة التحرير فى لبنان. فقد تحدث صراحة عن أن المنظمة استخدمت مواردها المالية الهائلة فى ذلك الوقت لاقامة ما وصفه فى أحد المواضع بـ "دولة موازية فى لبنان" وفى موضع آخر بـ "دولة فى داخل الدولة اللبنانية". وبرغم أنه لم يستخدم التعبير الشهير "جمهورية الفاكهانى" فهو عبر عن مضمونه بصياغات أخرى.

كما تطرق فى الطبعة العربية إلى تحليل وتفسير المرحلة اللبنانية فى تاريخ منظمة التحرير، موضحا أن الثورة الفلسطينية كانت تحولت فى جانب منها إلى نموذج لم يسبق له مثيل فى التاريخ إذ أصبحت "ثورة بترو دولارية". وأن أول بقعة جرت فيها تجربة هذا النموذج كانت بيروت إذ نشأت وتوثقت علاقة يصفها المؤلف بأنها "عجيبة". وهى علاقة بين أصحاب العقائد وخزائن البنوك بين الفدائيين وملكات الجمال بين الثوار وسادة الإقطاع. ويرى أن ما جرى الترويج له فى تلك الفترة عن أن بيروت صارت عاصمة الثورة العربية كان نوعا من الوهم حفز عليه عاملان وهما زيادة الغنى المادى لدى منظمة التحرير وتكدس السلاح فى مخازنها. كما يشير المؤلف فى الطبعة العربية إلى أنه وفق إحصاءات يمكن الوثوق فى صحتها حصلت المنظمة من الدول العربية على مبلغ يتراوح بين ٤و٥ بلايين دولار ما يعتبر ثورة هائلة بكل المقاييس ولعلها تزيد عن ما كان متوافرا لدى دول عدة فى العالم النامى. ولكن يحدد المبلغ فى الطبعة الإنجليزية بأنه وصل إلى نحو ٤ بلايين دولار. ويضيف فى هذه الطبعة وحدها أنه لم يتبق منها عقب أزمة الخليج الثانية سوى مبلغ يتراوح بين ١٥٠و١٨٠ مليون دولار.

ويختصر المؤلف تحليله هذا للعلاقة بين معضلة منظمة التحرير وتضخم نفوذها فى لبنان فى الطبعة الإنجليزية فى أن الدعم المالى العربى الواسع للمنظمة جعلها شديدة الثراء ولكن قدرتها على العمل العسكرى انحصرت فى عمليات فدائية عبر الحدود

اللبنانية. وفيما ورد نقد المؤلف لسلوك منظمة التحرير فى لبنان فى الطبعتين فقد اقتصر نقده لعمليات منظمة "أيلول الأسود" على الطبعة الإنجليزية، فيما تخلو الأخرى من أى تقييم لهذه العمليات بل ومن إشارة إليها باستثناء عملية اغتيال رئيس الوزراء الأردنى وصفى التل فى القاهرة فى ١٩٧١ . أما فى الطبعة الإنجليزية فقد رأى المؤلف أن هذه العمليات كانت لها تأثيرات إيجابية وأخرى سلبية. ولكن يبدو من سياق التحليل أنه يغلب التأثيرات السلبية. فبرغم أنه اعتبر تلك العمليات ساهمت فى جعل العالم أكثر إدراكا للقضية الفلسطينية فهو يشدد على أنها أدت فى الوقت نفسه إلى ربط هذه القضية بالارهاب أكثر من الكفاح المسلح. ويوضح أنه إذا كان الهدف هو دفع الغرب إلى الضغط على إسرائيل فلم يكن الإرهاب هو الوسيلة التى تحقق ذلك بنجاح مشيرا إلى أن التأييد الأمريكى لإسرائيل صار أقوى من ذى قبل بفعل عمليات "أيلول الأسود".

وضمن تناوله لمعضلة منظمة التحرير فى لبنان يعرج المؤلف فى الطبعتين على خريطة القوى السياسية اللبنانية مع تركيز خاص على القوى المارونية والشيعية. وبرغم أن الطبعة العربية تطرقت إلى دور الإمام موسى الصدر ونجاحه فى تحريك الشيعة عبر تأسيس "حركة المحرومين" التى صارت احدى قوى المقاومة الأساسية إلا أنها لا تشير إلى اختفائه. وفى المقابل تشير الطبعة الإنجليزية إلى أنه اختفى فى ٣ أغسطس ١٩٧٨ قبل ستة شهور على

الثورة الإيرانية. ولكنها لا تقدم جديدا فى شأن لغز اختفاء الصدر. وتكتفى بأنه اختفى فى ظروف غامضة إذ كان ذهب فى زيارة إلى ليبيا وفيما قالت السلطات الليبية أنه غادر إلى روما تبين أنه لم يصل أبدا إلى العاصمة الإيطالية ولم يعثر له على أثر بعد ذلك.

كما تقدم الطبعة الإنجليزية معلومات عن تاريخ الإمام الصدر الذى ولد فى مدينة قم الإيرانية فى عام ١٩٢٨ وذهب إلى صور فى جنوب لبنان فى الستينات. ولكن فيما ورد فى الطبعة العربية إشارة إلى أنه "كانت هناك علاقات من نوع ما بين الصدر ونظام الشاه فى إيران" على نحو قد يعتبره البعض اتهاما له كانت الطبعة الإنجليزية أكثر تحديدا عندما أوضحت أن طموحات الشاه المعروفة هى التى أدت إلى ظهور إشاعات عن أن الصدر كان مبعوثا امبراطوريا من نوع ما ولكن ثبت عدم صحتها. وتدلل على ذلك بأن المؤسسية الدينية فى قم هى التى أرسلت الصدر إلى جنوب لبنان بهدف رفع وعى ومعنويات الشيعة الذين كانوا أفقر الطوائف اللبنانية برغم عددهم الكبير.

وفيما تكتفى الطبعة العربية باشارة سريعة إلى خروج منظمة التحرير من لبنان توضح الإنجليزية أن ٨٥٠٠ من مقاتليها أبحروا إلى تونس التى انتقلت إليها القيادة الفلسطينية وأن حوالى ٢٥٠٠ توجهوا إلى سورية والعراق وأن اليمن عرضت أيضا استضافة بعض الراحلين. وفيما تشير الطبعتان إلى أن منظمة التحرير ابتعدت بهذا الرحيل عن منطقة الصراع ورد

فى العربية أنها صارت على مسافة ٣ آلاف كيلو متر تقريبا من أرض شعبها.

وتروى الطبعتان قصة الخلاف الذى ظهر فى داخل منظمة التحرير عقب انتقال قيادتها إلى تونس بين أنصار التوجه مباشرة إلى إجراء اتصالات مع الإسرائيليين (أطلق عليهم "حمائم" فى الإنجليزية) وبين رافضى هذا التوجه. وهو الخلاف الذى تم حسمه تدريجيا لصالح "الحمائم" وحوت الطبعتان قصة الخلاف الذى تفجر فى أحد الاجتماعات بين عرفات وعصام سرطاوى عندما أصر الأخير على تجاوز المواقف المائعة وقبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والاسراع باجراء اتصالات مع الإسرائيليين، فأصر عرفات على وقفه عن الكلام بعد أن تعرض لهجوم شديد من بعض الحاضرين خشية أن يقود تصاعد الجدل إلى الكشف عن الاتصالات السرية التى جرت من قبل. وهى اتصالات كان عرفات حريصا على اخفائها حتى ذلك الوقت مما دفعه إلى وضع سرطاوى تحت اقامة جبرية مؤقتة. ولكن فيما جاء فى الطبعة العربية أن هذا الخلاف انفجر فى جلسة تحضيرية مغلقة لمؤتمر وطنى فلسطينى عقد فى أواخر عام ١٩٨٢ (يقصد جلسة تحضيرية للمجلس الوطنى الذى عقد فى الجزائر فى فبراير ١٩٨٣) ورد فى الطبعة الإنجليزية أن الخلاف كان فى اجتماع المجلس الفلسطينى نفسه.

والطبعة العربية هى الأدق لأن اجتماع المجلس نفسه أسفر عن تطور كان يصب فى الاتجاه الذى عبر عنه سرطاوى إذ تضمنت مقرراته بندا يجيز

الاتصالات مع القوى اليهودية عموما وليس فقط "مع القوى اليهودية فى خارج إسرائيل" وفق ما ورد فى مقررات مجلس وطنى سابق عقد فى عام ١٩٧٧.

وفيما أخذ هذا الاتجاه يزداد قوة لم يمهل القدر عصام سرطاوى الذى كان من أبرز رواده إذ اغتيل فى ١٠ أبريل ١٩٨٣ عند مدخل الفندق الذى عقد فيه مؤتمر للحركة الدولية الاشتراكية كان مقررا أن يلتقى خلاله شمعون بيريز. وفيما وردت قصة اغتيال سرطاوى فى الطبعتين حوت الطبعة الإنجليزية وحدها إشارة إلى أن أحد شهود الاغتيال كان تورنالد ستولتينبرج وزير خارجية النرويج الذى كان قد ساهم فى ترتيب اللقاء بين سرطاوى وبيريز. ويلفت هيكل فى هذه الطبعة إلى مدى تأثر ستولتينبرج بحادث الاغتيال مما ساهم فى اضطلاع النرويج بدور نشط فى عملية السلام بعد عشر سنوات على وقوع هذا الحادث.

# الفصل السابع

# حكاية عرفات مع عبد الناصر والسادات وصدام

رغم أن علاقة الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر بدأت فى أواخر عام ١٩٦٧ قبل غياب الأخير بأقل من ثلاثة أعوام، فقد كانت أقوى من علاقة عرفات بالرئيس السادات، والتى شابتها غيوم كثيرة. وكان الحاكم العربى الوحيد الذى قدر لعرفات أن يقيم علاقة وثيقة معه بعد غياب عبد الناصر، هو الرئيس العراقى السابق صدام حسين.

ويروى الأستاذ هيكل فى كتابه عن المفاوضات السرية قصة بدء العلاقة بين عبد الناصر وعرفات، والتى كان له شخصيا الدور الرئيسى فيها. فعندما سعت قيادة حركة "فتح" إلى الاقتراب من عبد الناصر، عقب حرب ١٩٦٧، كانت أبواب القاهرة مغلقة أمامها. ويشير فى الطبعة العربية إلى أن الأجهزة الرسمية المصرية المختصة كانت معبأة ضد "فتح" فى ذلك الوقت. وكان تقرير هذه الأجهزة أن "فتح" إما متأثرة بـ "الإخوان المسلمين"، وإما متواطئة مع حزب البعث، فى الوقت الذى وصل خالد الحسن إلى القاهرة فى سبتمبر ١٩٦٧ لمقابلة هيكل وطلب مساعدته فى الاتصال مع عبد الناصر. ويضيف فى

الطبعة الإنجليزية أنه عندما زاره خالد الحسن مرة ثانية وكان معه فاروق قدومى وصلاح خلف وابلغوه أن عرفات يريد مقابلة مسؤول رسمى مصرى لم يكن هو (هيكل) سمع عن عرفات من قبل. ويفسر ذلك فى الطبعة الإنجليزية أيضا بأنه فى ذلك الوقت لم يكن أحد من هؤلاء معروفا خارج حركة الفدائيين.

وفيما يكتفى فى الطبعة العربية بالإشارة إلى أن الأجهزة الرسمية المصرية كانت معبأة ضد "فتح" يضيف فى الإنجليزية أن عبد الناصر قرر مقابلة عرفات وزملائه بالرغم من أن معلومات وصلته من بيروت حذرته من مقابلتهم خشية أن يكونوا متورطين فى مؤامرة لاغتياله.

وتبدو الطبعة الإنجليزية أكثر وضوحا فى إبراز معنى أن سيطرة "فتح" بعد ذلك على منظمة التحرير وإطاحة الشقيرى لصالح عرفات حصل بتأييد من مصر. ويشير المؤلف فى هذه الطبعة إلى أن جريدة "الأهرام" التى كان يرأس تحريرها نشرت موضوعا رئيسيا فى صفحتها الأولى إبان انعقاد المجلس الوطنى الفلسطينى فى القاهرة فى فبراير ١٩٦٩ توقع أن تفوز "فتح" بغالبية مقاعد اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. ويضيف أن الشقيرى أدرك أن هذا التوقع يعبر عن موقف عبد الناصر وفهم الرسالة فأخلى الطريق لعرفات.

ولكن الطبعة العربية توضح أن الشقيرى كان قد استقال من رئاسة منظمة التحرير فى ديسمبر ١٩٦٧، وورد فيها نص استقالته المؤرخة فى ٢٤ ديسمبر.

وتوضح الرواية الواردة فى هذه الطبعة وهى الأدق أن اعتراف عبد الناصر بحركة "فتح" وفر لها شرعية منحتها مكانة تقدمت بها على غيرها من المنظمات الفلسطينية. ولكن تخلو هذه الطبعة مما ورد فى الأخرى عن دعم مصرى مباشر للتحرك الذى قامت به "فتح" للسيطرة على منظمة التحرير.

وفيما يتناول هيكل فى الطبعتين الهجوم الذى شنته منظمة التحرير على مصر عندما قبلت الأخيرة مبادرة روجرز فى يونيو ١٩٧٠ مؤكدا أن هذا الخلاف لم يؤثر على موقف عبد الناصر تجاه المنظمة، يقدم فى الطبعة الإنجليزية وحدها تحليلا مهما ينطوى على نقد السلوك الفلسطينى فى ذلك الوقت. ويقوم هذا التحليل على أن القيادة الفلسطينية أساءت تقدير قدرة إسرائيل العسكرية وبالغت فى تصوير قوتها هى اعتقادا فى أن مجرد كونها تمثل قضية مقدسة يتيح لها أن تقول أى شىء ترغب فيه.

ولكن شتان بين علاقة هذه القيادة وعبد الناصر وعلاقتها بعد ذلك مع السادات والتى تنفرد الطبعة الإنجليزية بمعلومات مهمة عنها. وفيما تكتفى الطبعة العربية بإشارة إلى أن العلاقة بين الرئيس المصرى "الجديد" فى بداية السبعينات والقيادة الفلسطينية لم تكن وثيقة، توضح الإنجليزية أن عرفات وقيادتين فلسطينيين آخرين لم يأخذوا السادات مأخذ الجد. وتضيف أنه برغم تغير تقويمهم له بعد ذلك لم تصل علاقة عرفات مع السادات إلى العمق الذى كانت عليه مع عبد الناصر. فقد لاحظ عرفات أن السادات كان يفتقد إلى إلمام عبد الناصر بالقضية الفلسطينية

ومعرفته بتفاصيلها. ويفسر المؤلف ذلك بأن عبد الناصر كان يقرأ كثيرا فيما لم يكن السادات يطيق قضاء ساعات طويلة جالسا على المكتب مشيرا إلى أن الأخير لم يكن من أهل العمل الشاق.

ويروى المؤلف فى الطبعة الإنجليزية دون العربية أن صلاح خلف عبر بدوره عن خيبة أمل تجاه السادات عقب أول لقاء بينهما فى ١٩٧٠, ويقول إن أبو إياد لم يستطع إخفاء خيبة أمله بعد ٢٠ دقيقة من النقاش مع الرئيس المصرى الراحل إذ توجه عقب اللقاء معه إلى هيكل وسأله : هل تعتقد أن المنصب سوف يغيره . ولم يقتنع خلف عندما أجابه هيكل بالإيجاب. ومما له مغزى مهم هنا أن المؤلف نفسه لم يكن واثقا فى صحة إجابته على السؤال. وكان تعليق أبو إياد : إنه (السادات) ما زال غريبا مثلما كان دائما. ولكن يرى المؤلف أن السادات ربما كان غريبا ولكنه كان كذلك ذكيا وقادرا على استيعاب المعلومات التى يسمعها بسرعة كما كان يدرك الأهمية السياسية للقضية الفلسطينية.

والواضح أن المؤلف يميز هنا بين إدراك أهمية هذه القضية سياسيا وبين الالتزام تجاهها. فهو يرى أن السادات سعى إلى السيطرة على أوراق القضية الفلسطينية لخدمة أهدافه السياسية وتنافس فى ذلك مع الملك حسين. ولكنه (السادات) لم يكن لديه التزام عبد الناصر بها. ويفسر المؤلف ذلك فى الطبعة الإنجليزية أيضا بأن السادات افتقد خبرة عبد الناصر المباشرة فى شأن معاناة الفلسطينيين خلال حرب ١٩٤٨,

وتسهب الطبعتان فى متابعة تطور علاقة السادات مع منظمة التحرير خلال السبعينات. ولكن تتفرد الإنجليزية بقصة أول محاولة قام بها السادات لحث عرفات على قبول حكم ذاتى فلسطينى محدود. ففى بداية فترة إدارة كارتر اقترح وزير الخارجية الأمريكى فانس فى أول أغسطس ١٩٧٧ منح الفلسطينيين حكما ذاتيا فى غزة وأريحا وطلب الى السادات الحصول على رد من منظمة التحرير على اقتراحه. وعقد السادات لقاء مع عرفات وأبو إياد اللذين توجها بعد ذلك إلى منزل هيكل الذى يروى أن معنويات عرفات كانت مرتفعة فيما بدا أبو إياد قلقا. فقد رأى الأخير إن إسرائيل تريد التخلص من غزة وأن أريحا وردت فى الاقتراح من أجل تحليته. ويوضح المؤلف أن المناقشة التى دارت فى منزله أسفرت عن اتفاق على عدم قبول الاقتراح. وعندما زار فانس القاهرة بعد أيام قليلة أبلغه انسادات أن المنظمة رفضت الاقتراح.

ويعد اللقاء الذى حصل فى عام ١٩٨١ بين السادات وسعيد كمال الذى كان ممثلا لمنظمة التحرير فى القاهرة وقتها من أهم فصول قصة العلاقة بين الرئيس المصرى الراحل والقيادة الفلسطينية. فإلى جانب النصيحة التى قدمها السادات فى شأن ضرورة إجراء اتصالات مع "المؤسسة اليهودية" فى الولايات المتحدة طلب أيضا إلى كمال تحذير عرفات من غزو إسرائيلى متوقع للبنان إذا لم تبد منظمة التحرير مرونة. ولكن يختلف تاريخ هذا اللقاء فى الطبعتين. فقد ورد فى العربية أنه تم فى ٢ فبراير ١٩٨١ فيما جاء فى الإنجليزية أنه كان فى خريف ١٩٨١ قبيل اغتيال السادات.

والأرجح هو أن الرواية الإنجليزية أكثر دقة لأنه يصعب تصور أن يكون السادات تلقى معلومات عن الإعداد للغزو التى تم فى يونيو ١٩٨٢ قبل ١٧ شهرا من حدوثه وبخاصة إذا أخذ فى الاعتبار تفسير المؤلف كيف عرف السادات أن الإسرائيليين يعدون لهجوم على لبنان. وحسب هذا التفسير الذى ورد فى الطبعة الإنجليزية حرص الإسرائيليون على إرسال إشارات إلى القاهرة تفيد أن عملية عسكرية ستحصل ضد منظمة التحرير حتى لا يفاجأ المصريون بها وبهدف تجنب أى تدخل مصرى لمصلحة المنظمة. ويضيف المؤلف أن الأمريكيين بدورهم أخطروا السادات أن صبر إسرائيل تجاه منظمة التحرير بدأ ينفذ.

وتضيف الرواية الإنجليزية أن السادات تحدث إلى سعيد كمال خلال اللقاء عن أن المنظمة محاصرة وسط ثلاثة أعداء هم إسرائيل وسورية والقوى المسيحية فى لبنان مشيرا إلى أن السادات لم يمهله القدر لكى يكرر تحذيره إلى القيادة الفلسطينية من عملية عسكرية إسرائيلية كانت متوقعة. وهذا يؤكد كذلك أن اللقاء كان قبيل اغتياله وليس فى فبراير ١٩٨١.

والملاحظ أن الطبعة الإنجليزية تنفرد أيضا برواية مقدمات اغتيال السادات والإشارة إلى الإجراءات القمعية التى كان قد اتخذها فى ٥ سبتمبر ١٩٨١ ضد معارضيه إذ اعتقل مئات منهم وكان من بينهم الأستاذ هيكل.

وهو يروى أنه فى ذلك الوقت تجددت فى القاهرة وعواصم عربية أخرى أحاديث عن مؤامرات لاغتيال السادات وأن قيادة منظمة التحرير خشيت أن يتعرض فلسطينيون للاتهام إذا اغتيل بالفعل. فقررت إبلاغه بما يتردد لتؤكد عدم تورطها فى أية مؤامرة.

وهنا تختلف الرواية فى الطبعتين. فقد ورد فى الطبعة العربية أن عرفات بعث برسالة إلى نبيل شعث فى يوم أول أكتوبر يطلب إبلاغ سيد مرعى أنه إذا حصل شىء فى مصر نرجو أن لا تلصق التهمة بالفلسطينيين. وكان اختيار مرعى لإبلاغه الرسالة حسب هذه الطبعة لأنه هو الذى كان يحاول إصلاح العلاقات بين مصر والمنظمة فى ذلك الوقت. وتضيف الطبعة العربية أن سعيد كمال قرأ الرسالة الموجهة إلى شعث وفضل أن يبلغها إلى السادات مباشرة.

أما فى الطبعة الإنجليزية فقد ورد أن عرفات بعث بالرسالة إلى سعيد كمال (وليس إلى شعث). وطلب إليه إبلاغ عثمان أحمد عثمان (وليس سيد مرعى) ما يتردد عن مؤامرات لاغتيال الرئيس المصرى ولكن كمال قرر أن يبلغ الرسالة إلى السادات مباشرة.

وتتفق الطبعتان فى أن السادات استهان بالرسالة ورد على حاملها بأنه يتعين على عرفات أن يحمى نفسه أولا. وكان هذا هو أخر فصل فى قصة العلاقة بين عرفات والسادات. وبرغم أنها كانت قصة مثيرة فى كل فصولها فهى أقل إثارة من قصة العلاقة التى تنامت بعد ذلك بين الزعيم الفلسطينى والرئيس العراقى صدام حسين. ويبدى المؤلف اهتماما بهذه

القصة في الكتاب بطبعتيه اللتين تتباينان جزئيا فى تقييم موقف الزعيم الفلسطينى خلال أزمة الغزو العراقى للكويت.

فقد ورد فى الطبعة الإنجليزية ما يفيد أن عرفات أيد صدام حسين ضمن تحليل المؤلف لتأثير أزمة الخليج الثانية على منظمة التحرير. فهو يشير إلى أن هذه الأزمة (الحرب) كلفت المنظمة خسارة كبيرة مالية وسياسية بسبب تأييد عرفات لصدام حسين. فقد ترتب على ذلك أن خسرت المنظمة الدعم المالى والسياسى من دول الخليج العربية وواجهت عزلة سياسية وإفلاسا ماليا مما دفعها بعد ذلك إلى محادثات أوسلو السرية. ولكن فى الطبعة العربية يوضح هيكل أن عرفات اعتبر الأزمة بمثابة فرصة تصور أن المنظمة تستطيع أن تقوم بدور خلالها. ويرى أن الدور الذى تصوره عرفات "كان ميئوسا منه منذ البداية وأن مناخ الاستقطاب الحاد الذى غلب على الأزمة منذ أول لحظة أرغم كثيرين على مواقف تبدو فى ظاهرها قابلة للالتباس".

وتختلف هذه الصياغة فى العربية عن تلك التى وردت فى الإنجليزية فى شأن تأييد عرفات لصدام. ويظهر الاختلاف أيضا عندما يضيف المؤلف فى الطبعة العربية أن "عرفات بدا وكأنه مؤيد للعراق فى غزوه للكويت. وربما أن كثيرين كانوا يدفعونه الى هذا الموقف بأكثر مما يريد".

ويرى المولف فى هذه الطبعة أنه كان هناك عوامل موضوعية ساعدت على وضع عرفات فى موضع

يتخوف منه ويعارضه آخرون من قادة منظمة التحرير الكبار وفى مقدمهم أبو إياد وأبو مازن وغيرهما.

ويشير فى الطبعة نفسها إلى أن عرفات كان يعانى شعورا زائدا بالإحباط بعد قرار الولايات المتحدة تجميد الحوار مع منظمة التحرير برغم كل التنازلات التى قدمها. وهنا يستخدم المؤلف فى الطبعة الأخرى الإنجليزية تعبيرا أكثر دلالة وهو أنه لو كانت إدارة بوش اتخذت الموقف الذى اتجهت إليه عقب حرب الخليج الثانية قبل هذه الحرب لربما ما كان عرفات ألقى بنفسه فى أحضان صدام حسين.

ويضيف لكن فى الطبعة العربية أن عرفات كان قلقا كذلك من تنامى دور التيار الإسلامى فى الشارع الفلسطينى. ولكن أهم ما يقوله المؤلف فى هذه الطبعة هو أن النظام العراقى تبنى القضية الفلسطينية بالكامل سعيا إلى اجتذاب أكبر قطاعات من الجماهير العربية. وفى لحظة من اللحظات يضيف المؤلف بدا وكأن هذا النظام يملك ترسانة حربية هائلة خصوصا الصواريخ قد لا تستطيع أن تهزم إسرائيل فى ميدان القتال وإنما تستطيع على الأقل أن ترغمها على إجراء حساب يحد من الجموح. ولما كان عرفات اندفع بعيدا فى انحيازه للعراق أثناء الحرب مع إيران فقد ظن أن الجيش العراقى المنتصر فى حرب الخليج الأولى سوف تكون لديه ٦٠ فرقة مهيأة للعمل على الجبهة الغربية !!

وتقدم هذه الطبعة (الإنجليزية) معلومات أكثر وتحليلا أشمل لتطور علاقة عرفات مع العراق

وصدام حسين. فقد ورد فيها أن منظمة التحرير اعتبرت العراق راعيا لها بعد رحلة طويلة مشتها بحثا عن راع إذ كانت أدركت أنها فى حاجة إلى هذا الراعى لكى تدعم موقفها فى أية تسوية سياسية فى حاجة إلى دولة قوية قادرة على أن تدعمها وتوفر لها قاعدة. ويرى المؤلف فى هذه الطبعة (الإنجليزية) أن هذا المفهوم قاد عرفات إلى سلسلة من التجارب بين نهاية السبعينات وبداية التسعينات بما فيها تجربة الاقتراب من إيران عقب ثورة الخومينى والتورط الشديد فى سياسات لبنان الداخلية وصولا إلى العراق.

ويلاحظ المؤلف فى هذه الطبعة أيضا أن عرفات سعى عقب النزوح من لبنان إلى تونس إلى إيجاد شريك إقليمى قوى انطلاقا من مفهومه الذى سبقت الإشارة إليه وهو أنه لا أمل فى التوصل إلى سلام عادل بدون قوة عسكرية.

ولذلك يضيف المؤلف فى الطبعة الإنجليزية أن عرفات بدأ فى بناء علاقات وثيقة مع صدام حسين سعيا إلى الحصول على التزام العراق بتقديم رعاية سياسية وعسكرية للمنظمة وقضيتها. ويشير إلى أن عرفات قام بزيارات عدة إلى العراق وصار متورطا بشكل متزايد فى العلاقات المعقدة بين صدام وجيرانه فيما ذكر فى موضع آخر فى الطبعة نفسها (الإنجليزية) أن عرفات بدأ يقضى أوقاتا أطول فى بغداد فى الوقت الذى تردد أنه كان هناك اتجاه إلى نقل مقر قيادة منظمة التحرير من تونس إلى العراق.

وبرغم أن الطبعة العربية تبدو أكثر تحفظا من الإنجليزية فى شأن تأييد عرفات للعراق خلال أزمة الخليج الثانية كما سبق إيضاحه فهى تشير إلى أن الزعيم الفلسطينى كان لديه اعتقاد فى أن الأزمة سوف يتم حلها بوسيلة أخرى غير السلاح. وفيما يصف المؤلف ذلك الاعتقاد بأنه "يصعب تبين أسسه" إلا أنه يشير إلى أن عرفات ربما كان على علم بجانب من الحديث الذى دار فى بداية الثمانينات بين مدير الاستخبارات الأمريكية وليام كايسى ورئيس الاستخبارات العراقية فاضل البراك حيث لم يعترض الأول بشدة على كلام الثانى عن مطالب العراق التاريخية فى الكويت وإنما أشار إلى أن هذا حديث مؤجل إلى ما بعد انتهاء الحرب (حرب الخليج الأولى).

وفيما وردت إشارة سريعة فى الطبعة العربية إلى لقاء كايسى - البراك هذا فقد حوت الطبعة الإنجليزية تفاصيله التى لم يسبق عرضها بمثل هذا القدر من الوضوح. وتختلف الطبعتان فى تحديد تاريخ اللقاء (عام ١٩٨١ فى الإنجليزية وعام ١٩٨٢ فى العربية). ولكنهما تتفقان على أنه تم قرب العاصمة الأسبانية مدريد. وتوضح الطبعة الإنجليزية أنه تم بعد أن تغلغل الجيش العراقى فى داخل إيران واحتل إقليم خوزستان الذى طرح الباراك خلال اللقاء أن العراق يفكر فى ضمه على أساس أنه كان جزءا من العالم العربى حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولكن خبيرين أمريكيين كانا مرافقين لكايسى اعترضا وحذرا من مخاطر الإخلال بالتوازن الإقليمى. ومع

ذلك أصر الباراك على أن العراق يواجه مشكلة بسبب عدم وجود منفذ مناسب له على الخليج وتطرقت المناقشة حسب الطبعة الإنجليزية أيضا إلى الكويت وادعاءات العراق التاريخية فى شأنها. وقال الباراك إن بلاده تعتبر الكويت جزءا منها انتزعه الإنجليز فى نهاية القرن الماضى.

وهنا تشير الطبعة الإنجليزية إلى أن كايسى ومساعديه استمعوا إلى ملاحظة الباراك من دون اعتراض وأعطوا انطباعا بأنهم أكثر اهتماما بخوزستان فيما ورد فى الطبعة العربية أن كايسى لم يعترض بشدة وإنما قال إن هذا حديث مؤجل.

وتضيف الطبعة الإنجليزية أن كايسى ومساعديه ذكروا أن الولايات المتحدة ليس لديها التزامات تعاقدية تجاه الكويت وأن الباراك خرج من اللقاء مقتنعا بأن العراق حصل على ضوء أخضر للسيطرة على الكويت.

ولكن فى الطبعة العربية ورد أن كايسى ألمح بسرعة بعد أن أشار إلى أن هذا حديث مؤجل إلى أن الولايات المتحدة ليست لديها التزامات أمنية تجاه الكويت. وتضيف هذه الطبعة أن أقوال كايسى كانت لها عواقب وخيمة فى ظروف لاحقة كانت لا تزال كامنة فى ذلك الوقت.

وتهتم الطبعة الإنجليزية وحدها بمتابعة هذه العواقب إذ يرى المؤلف فى هذه الطبعة أنه ليس هناك دليل على أن العائلة المالكة الكويتية كانت تعرف

ما جرى فى اللقاء بين كايسى والباراك مشيرا إلى أن عندما تحولت الحرب فى مصلحة إيران كانت هناك لحظات بدا فيها أن الكويتيين مستعدون لقبول حماية عراقية إزاء الخطر الإيرانى.

ويقول المؤلف فى هذه الطبعة أيضا أن الاعتقاد فى أن واشنطن لا تعارض ضم الكويت ظل فى خلفية تفكير صدام حسين مما أدى بعد تسعة أعوام إلى الحسابات الخاطئة التى فجرت حرب الخليج الثانية وإلى أكبر نكسة فى مسار ياسر عرفات.

ويضيف أن الزعيم الفلسطينى ظل حتى أزمة الكويت يرى أنه لا يوجد تعارض بين العلاقة الوثيقة مع بغداد وبين السعى للاقتراب من واشنطن. فكان صدام الذى بدا أقوى زعيم عربى يحظى باحترام أمريكى.

وفيما تشير الطبعة الإنجليزية إلى أن عرفات لم يكن يعرف تفاصيل ما حصل فى لقاء كايسى - الباراك، ورد فى الطبعة العربية أنه ربما كان على علم بجانب مما دار فى هذا اللقاء ولم يكن خافيا عليه أن كلمات كايسى هى نفسها التى استخدمتها السفيرة الأمريكية لدى بغداد جلاسبى خلال حديثها مع صدام حسين عندما بحث معها ما وجده "استفزازات اقتصادية وأمنية تقوم بها حكومة الكويت ضد بلاده". وكانت جلاسبى قالت لصدام إن الولايات المتحدة ليس لها رأى فى شأن النزاع الحدودى بين العراق والكويت.

ويضيف المؤلف فى الطبعة العربية أنه "لعل

عرفات وهو يتذكر ذلك قدر أن الحشود العسكرية الأمريكية عملية تخويف نفسى تمهد المسرح لتسوية سياسية يخرج بها العراق من الكويت محتفظا بجزيرتى بوبيان وورية إلى جانب النصف الآخر من حقل بترول الرميلة. وكان ذلك خطأ فى الحسابات ولعله خطأ فى المعلومات". ويتفق هذا التحليل مع ما ورد فى الطبعة الإنجليزية عن أن عرفات ظل يعتمد فى أن الولايات المتحدة لن تقدم على شن حرب برغم أن معظم الدول العربية أدركت بسرعة أن واشنطن جادة فى التزامها تحرير الكويت.

كما يتفق التحليل فى الطبعتين فى شأن تأثير حرب الخليج الثانية على منظمة التحرير. ففى الطبعة العربية كانت المنظمة فى أسوأ أحوالها بعد انتهاء الحرب. وموقف عرفات وضعها فى صف المهزومين. وفى الإنجليزية تركت هزيمة القوات العراقية منظمة التحرير فى وضع صعب ولم يعد لديها سوى قليل من الأصدقاء فى المنطقة. وبرغم استمرار الانتفاضة إلا أنها لم تعد تستقطب الاهتمام الذى كانت تحظى به قبل الحرب فضلا عن تأثير اغتيال اثنين من قيادييها هما أبو إياد وأبو الهول.

ولكن يلتمس المؤلف فى الطبعة العربية وحدها عذرا لعرفات عندما يشير إلى أنه "دون الدخول فى تفاصيل سوف تتكشف أسارها ودخائلها فى يوم من الأيام فإن العواصم العربية من دون استثناء تورطت فى العاب أكبر من علمها ومن قوتها وظنت خطأ ووهما أنها ضمن اللاعبين. وكأن الظروف تصنع حقائقها وأولها أن إسرائيل أصبحت القوة النافذة فى

المنطقة بغير منازع. فقسم من العرب أعطوها الذرائع دون أن يعرفوا. وقسم آخر من العرب أعطوها الوسائل دون أن يدركوا".

وفى سياق تناول المؤلف لموقف عرفات وعلاقته مع صدام حسين يتوسع فى التحليل فى الطبعة الإنجليزية وحدها ليناقش القرار العراقى بغزو الكويت مشيرا إلى الظروف التى جدت عقب انتهاء حرب الخليج الأولى فى أغسطس ١٩٨٨، إذ صار العراق فى حاجة إلى أموال للإنفاق على عملية إعادة البناء فى الوقت الذى كانت أسعار النفط انخفضت. ويتناول المحاولات التى جرت فى إطار منظمة "أوبك" لخفض حصص الانتاج بأمل رفع الأسعار. وهنا يرى هيكل أن رفض الكويت التزام الحصص الجديدة أثار غضبا فى العراق الذى لم تنس قيادته كلام كايسى فى لقائه مع الباراك. كما كان صدام حسب الطبعة الإنجليزية يشعر بأنه ساهم فى حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة عندما تصدى لنفوذ الأصولية الإيرانية. وساهم الكشف عن "إيران كونترا" فى تصاعد الغضب العراقى إذ شعر البعض فى بغداد أن العراق يستحق تعويضا عن عدم عدالة واشنطن فى موقفها وأنه إذا لم تقدم هذا التعويض يصبح من حق العراق أن يحصل عليه بقوته.

ويكتفى المؤلف فى تقييمه لهذا المنطق الذى يصفه بأنه "معقد" بالقول إنه قاد العراق إلى طريق شديد الخطورة.

# الفصل الثامن

# من مؤتمر مدريد إلى مفاوضات واشنطن

يروى الأستاذ هيكل فى الطبعتين العربية والإنجليزية لكتابه عن المفاوضات السرية قصة مؤتمر مدريد فى آخر أكتوبر ١٩٩١ . وفيما كانت صورة هذا المؤتمر فى الطبعة العربية مثل "مشهد تليفزيونى ملون قصد به فى الدرجة الأولى إعطاء الانطباع العام بأن العرب والإسرائيليين جلسوا جميعا فى قاعة واحدة وانهمكوا فى صنع السلام فيما بينهم" أعطت الطبعة الإنجليزية صورة أكثر إيجابية للمؤتمر. فقد ورد فيها أنه كان بداية لعملية طويلة مع إشارة ذات مغزى إلى أنه للمرة الأولى من ٤٣ سنة من الصراع جلس الفلسطينيون على مائدة التفاوض مع الإسرائيليين.

وفيما اعتبر المؤلف فى هذه الطبعة (الإنجليزية) أنه لم يكن هناك سبب للتفاؤل فقد رأى أيضا أن المؤتمر خلق توقعات بإحراز تقدم وأنه كان نصرا للفلسطينيين على صعيد العلاقات العامة. ويشيد فى الطبعتين بدور حنان عشرواى فى تحقيق هذا "النصر". وبرغم أنه يشيد بحيدر عبد الشافى أيضا فقد اقتصرت هذه الإشادة على الطبعة العربية إذ وصف فيها بأنه "تصرف وتكلم على نحو أعطى الخطاب الفلسطينى قدرا كبيرا من احترام النفس

واحترام الآخرين. وكان الرجل فى أدائه على مستوى القضية التى تكفل بتمثيلها".

وتتفرد الطبعة الإنجليزية بتحليل تأثير مؤتمر مدريد على الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة إذ اعتبره المؤلف مشابها لتأثير زيارة السادات إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ على المصريين. وهو التأثير الذى يتلخص فى كسر الـ "تابو". كما يشير فى الطبعة الإنجليزية دون العربية إلى تقرير رفعه سفير مصر لدى إسرائيل محمد بسيونى إلى حكومته أوضح فيه أن "أعمال العنف" توقفت تماما فى الأراضى المحتلة خلال فترة المؤتمر الأمر الذى كان يعكس شعورا بالتفاؤل".

ويتناول المؤلف فى الطبعتين دور مصر فى دعم الفلسطينيين فى ذلك الوقت وبخاصة فى مجال "تدريس" أساليب التفاوض لأعضاء الوفد الفلسطينى. ولكن يوجد تباين طفيف بين الطبعتين فى أسماء "المعلمين" و "المتعلمين". فبالنسبة إلى المصريين الذين حاضروا الفلسطينيين وردت أسماء عمرو موسى ومصطفى خليل فى الطبعتين. ولكن فيما حوت العربية اسمى أسامة الباز ونبيل العربى ورد فى الإنجليزية اسما بطرس غالى وأسامة الباز.

أما بالنسبة الى الفلسطينيين فقد ورد فى الإنجليزية أن كل أعضاء وفدهم تقريبا تلقوا محاضرات فيما حددت العربية أسماء كل من حيدر عبد الشافى وحنان عشراوى وفيصل الحسينى وصائب عريقات فضلا عن أبو مازن الذى قيل أنه حضر معظم المحاضرات.

وتبدو الطبعة الإنجليزية أكثر وضوحا ومباشرة فى نقد الموقف الإسرائيلى فى مفاوضات واشنطن التى أعقبت مؤتمر مدريد. فيؤكد المؤلف فى هذه الطبعة أن الإسرائيليين لم يذهبوا إلى واشنطن للتفاوض وإنما بهدف كسب الوقت لبناء مزيد من المستوطنات والقضاء على الإنتفاضة. وورد هذا النقد فى الطبعة العربية بشكل غير مباشر عبر الإشارة إلى تشكيل الوفد الإسرائيلى برئاسة إلياكيم روبنشتاين الذى وصفه المؤلف بأن "تاريخه كله يضعه فى صف الصقور فى السياسة الإسرائيلية". ويضيف أن عشرة من أعضاء هذا الوفد "كان تاريخهم مخفيا ومناصبهم شبه وهمية تدل على أنهم من الاستخبارات العسكرية أو من" موساد". ولكن لا تحوى الطبعة العربية ما ورد فى الإنجليزية 'عن أن هذا التقرير يعتمد على ورقة أعدتها منظمة التحرير عن أعضاء الوفد الإسرائيلى. والأهم هو أنه لا يرد فى الطبعة العربية ضمن تعريف إيتان بن تسور مساعد رئيس الوفد الإسرائيلى ما جاء فى الإنجليزية عن أنه كان عضوا من قبل فى حركة السلام الآن وأنه رفض ذات مرة مصافحة شامير فى مناسبة عامة. فقد جاء تعريف بن تسور فى العربية مقصورا على أنه كان نائب المدير العام للخارجية الإسرائيلية وكانت صلاته مع المؤسسة اليهودية فى أمريكا وثيقة منذ أن كان قنصلا لإسرائيل فى لوس أنجلوس.

كما تنفرد الطبعة الإنجليزية بتفسير المؤلف مغزى اختيار موفق العلاف لرئاسة الوفد السورى وهو أنه كان يتمتع بمكانة ولكن من دون سلطة وأن دمشق لم ترغب فى أن يكون المفاوض الرئيسى مع الإسرائيليين

على صلة مباشرة مع حزب البعث. ويضيف المؤلف أن العلاف الذى كان ديبلوماسيا محترفا لم يكن فى مقدوره القول أنه كان يحظى بتأييد النخبة الحاكمة فى دمشق.

وفيما تشير الطبعة العربية إلى أن المسار اللبنانى بدا ملحقا وتابعا للمسار السورى تضيف الإنجليزية أن وفد لبنان لم يكن يستطيع سوى أن يقوم بدور الشريك الأصغر للوفد السورى. والملاحظ أن الوفد اللبنانى هو الوحيد من بين الوفود الذى لم تذكر الطبعة العربية اسم رئيسه "سهيل الشماس" الذى ورد فى الإنجليزية مع تعريفه بأنه ديبلوماسى محترف وكان عضوا فى الوفد اللبنانى الذى تفاوض مع إسرائيل على اتفاق عام ١٩٨٣ .

ويهتم الأستاذ هيكل فى الطبعتين بالتناقضات التى ظهرت فى صفوف الفلسطينيين فى ذلك الوقت. ولكن تركز الطبعة الإنجليزية على التناقض بين عرفات والوفد الفلسطينى. وتشير إلى أنه فيما بقى رئيس منظمة التحرير فى تونس يتلقى الفواتير الخاصة بنفقات الوفد فى واشنطن صار أعضاء هذا الوفد نجوما فى الإعلام وغدوا وجوها معروفة لكل عربى يشاهد التليفزيون. ويصف المؤلف فى الإنجليزية العلاقة المعقدة بين الطرفين بأنه كانت مزيجا من الاعتماد المتبادل والتوتر. وفيما كان عرفات فى حاجة إلى أعضاء الوفد فقد شعر بأن الأضواء أدارت رؤوسهم وأن المعلومات التى كانوا يرسلونها إلى تونس افتقدت الدقة.

ويتطرق الأستاذ هيكل فى الطبعة العربية إلى هذا التناقض ضمن تناوله لمؤتمر مدريد فقط إذ يشير إلى أن قيادة منظمة التحرير فى تونس "كانت مستشاطة من الغضب لأن وفدا فلسطينيا لا توجد هى فيه بنفسها فى مدريد يمكن إذا توافرت له ظروف ملائمة أن يصير قيادة بديلة عنها". وفيما يرى المؤلف أن حصول ذلك كان شبه مستحيل لأن "أى وفد فلسطينى مهما بلغ لمعان نجومه سيظل معتمدا على منظمة التحرير" فهو لا يواصل متابعة العلاقة بين الطرفين إلا فى الطبعة الإنجليزية.

ولكنه فى المقابل يمر مرورا سريعا فى هذه الطبعة على التنافس بين أعضاء الوفد أنفسهم فيما يهتم أكثر بهذا التنافس فى الطبعة العربية مشيرا إلى أن الوفد كان منقسما على نفسه إلى درجة أن حيدر عبد الشافى قال مرة : فى الحقيقة نحن ١٤ وفدا فلسطينيا (فى إشارة إلى أعضاء الوفد الـ ١٤) وكل عضو هو وفد مستقل وكل واحد يمثل نفسه وله اتصالاته وله ميادينه.

ويشير الأستاذ هيكل إلى أن هذا الانقسام جعل الوفد الأردنى يشعر أن محادثات واشنطن لن تستقر عن شىء ذى قيمة بسبب "الفوضى السائدة فى الوفد الفلسطينى". ولكنه يتحفظ على هذا التقويم ويعتبر أنه "ربما فيه بعض التجنى لأن الوفد الفلسطينى كان فى حقيقة الأمر يواجه القضايا الأساسية فى الصراع العربى الإسرائيلى". وبرغم أن هذا التحفظ لا يرد فى الإنجليزية التى تشير إلى أن الوفد الفلسطينى كان عرضة لتنافس بين أعضائه "النجوم" إلا أن

الصياغة الواردة فيها عن هذا التنافس تبدو متحفظة وهى أن الوفد الفلسطينى "أعطى انطباعا بأنه منقسم على نفسه" من دون تأكيد هذا الانقسام.

وبرغم أن الطبعتين تطرقتا إلى غياب التنسيق بين الوفود العربية فى واشنطن تبدو الإنجليزية أكثر تحديدا عندما تشير إلى أن الوفد الأردنى شكا من رفض الفلسطينيين الإفصاح عن ما كان الإسرائيليون يطرحونه عليهم. ويقول المؤلف فى هذه الطبعة أنه كان من الضرورى تبادل المعلومات للحؤول دون نجاح الإسرائيليين فى التلاعب بالوفود العربية ولكن الفلسطينيين بقوا صامتين. ولكنه يكتفى فى العربية بإشارة إلى أن الوفود العربية لم تكن تنسق مع بعضها "بل كان بينها من يقصد الإخفاء بل وتضليل الوفود الأخرى لأسباب ضيقة وسطحية".

ويتباين تقدير المؤلف فى كل من الطبعتين لتأثير حملة الانتخابات الإسرائيلية التى جرت فى يونيو ١٩٩٢ على المفاوضات فى واشنطن.

فهو يرى فى الطبعة الإنجليزية أنه خلال هذه الحملة صار المفاوضون الإسرائيليون أكثر حذرا من ذى قبل مما أدى إلى شكوك متبادلة وإشاعات. ولكنه يشير فى الطبعة العربية إلى أن مصر التى كانت تفضل حزب العمل سعت إلى مساعدته بكل الوسائل وأن هذا الحزب طلب عن طريق القاهرة تعطيل أعمال الجولة السادسة (الأرجح أنه يقصد الخامسة لأن الجولة السادسة كانت عقب الانتخابات الإسرائيلية) فى مفاوضات واشنطن بين الفلسطينيين

والإسرائيليين حتى لا يستغل شامير أى تقدم فيها لصالحه فى المعركة الانتخابية. ويضيف أن هذا تحقق بالفعل.

ولا تشير الطبعة الإنجليزية إلى "دور مصر" هذا وإنما توضح أن المفاوضات دخلت مرحلة جمود الحملة الانتخابية الإسرائيلية نفسها وأن الفجوة بين المواقف العربية والإسرائيلية فى كل القضايا الأساسية ظلت واسعة بل وفى بعض الحالات غدت أوسع مما كانت من قبل. ولكن الأهم هو أنه فيما تشير الطبعة العربية إلى أن حزب العمل سعى عن طريق مصر إلى تعطيل المسار الفلسطينى الإسرائيلى ورد فى الإنجليزية أن جمود المفاوضات أدى إلى انتشار اشاعات عن حصول تقدم فى المسار السورى الإسرائيلى وأن المصريين سعوا إلى تشجيع الفلسطينيين والأردنيين على التحرك بسرعة حتى لا يسبقهم السوريون.

وتعد مقدمات مفاوضات أوسلو من أهم ما يتناوله الكتاب فى الطبعتين. وتركز الطبعة الإنجليزية ضمن هذه المقدمات على أن مفاوضات واشنطن لم تحرز تقدما ملموسا عقب تشكيل حكومة رابين بعكس ما كان متوقعا. كما تهتم بتأثير حملة الانتخابات الرئاسية الأمريكية التى كانت دخلت مرحلتها النهائية عندما بدأت أول جولة مفاوضات فى عهد رابين (الجولة السادسة فى ٢٤ أغسطس ١٩٩٢). وتوضح هذه الطبعة أنه عندما بدأت الجولة السادسة كان العرب يأملون فى أن تكون مختلفة. ولكنهم وجدوا أن الوفد الإسرائيلى بقى كما كان برئاسة روبنشتاين. كما

أن المنسقين الأمريكيين صاروا أكثر حذرا من ذى قبل ولم يرغبوا فى حدوث ما يؤثر على التصويت اليهودى فى الانتخابات. وظل المسار الفلسطينى راكدا برغم حدوث تقدم طفيف فى المسار السورى فى الجولتين السادسة والسابعة.

أما فى الطبعة العربية فيقف الأستاذ هيكل أمام تنامى قلق عرفات وبخاصة مع تصاعد نفوذ التيار الإسلامى فى الشارع الفلسطينى مع إشارة واضحة إلى أن موازين التأييد الشعبى فى قطاع غزة كانت تميل فى اتجاه حركة "حماس". كما يشير مجددا على قلق عرفات من الوفد الفلسطينى فى واشنطن حيث ظل أعضاؤه يتصرفون كـ "نجوم".

ولكن فيما يقول فى الطبعة الإنجليزية أن فوز كلينتون كان ضربة أخرى للمفاوضات لأنه لم يكن متوقعا أن تقوم الإدارة الأمريكية الجديدة بمبادرات فى أيامها الأولى، ورد فى الطبعة العربية ما يفيد أن عرفات وجد فى تغيير الإدارة فى الولايات المتحدة فرقا ما على أساس أن بوش وبيكر هما اللذان كان يعلقان آمالا على عبد الشافى والحسينى وعشراوى وأنه ربما اتجه كلينتون وكريستوفر إلى البحث عن وسائل مختلفة. ويشير المؤلف إلى أن تقدير عرفات هذا كان صحيحا. وتتطرق الطبعتان إلى تأثير قرار الحكومة الإسرائيلية طرد ٤١٥ من نشطاء الإسلاميين الفلسطينيين معظمهم من حركتى "حماس" و"الجهاد" على المفاوضات فى ديسمبر ١٩٩٢ فى الوقت الذى كانت هذه الحكومة نفسها تلمح إلى إمكان التعاطى مع منظمة التحرير فى شكل مباشر.

وفيما تشير الطبعة الإنجليزية إلى أن حكومة رابين أبدت قدرا من المرونة فى إتجاد بناء علاقة مع منظمة التحرير تؤكد العربية على أن أطراف الائتلاف الحكومى "الجديد" وقتها لم تكن تمانع فى التفاوض مباشرة مع المنظمة بدلا من إضاعة الوقت مع الوفد الفلسطينى فى واشنطن وبخاصة بيريز ووزراء حركة "ميريتز". وتشير إلى أنه على الرغم من كون رابين ظل يمانع، فقد كان على استعداد لمراجعة أفكاره فى ظل الحاح عليه من شخصيات أمريكية ومصرية سعوا إلى إقناعه بأن إسرائيل فشلت فى خلق قيادة بديلة عن المنظمة فى الأراضى المحتلة وأن عرفات نجح فى وضع الوفد الفلسطينى تحت جناحه.

ويرى الأستاذ هيكل فى هذه الطبعة (العربية) ان رابين نفسه أدرك أن "حيدر وفيصل وحنان هم مجرد سحب من الدخان. ربما كانوا نجوما لكنها نجوم لا تستطيع أن تخرج من سماء منظمة التحرير". كما ينوه فى هذه الطبعة أيضا بأن رابين كان يريد أن يختتم دوره السياسى بعمل كبير. ونسب إليه قوله فى اجتماع مع أعضاء هيئة مكتبه أنه إذا استطاع انهاء "الموضوع الفلسطينى" سوف يكون هذا هو أعظم إنجازفى تاريخ إسرائيل. وهكذا فيما كان رابين يفكر قرر بيريز أن يغامر ويجرب. وهنا تحديدا كانت قناة أوسلو السرية التى يروى المؤلف فى كل من الطبعتين قصة الظروف التى نشأت فيها.

ولكنه يعطى اهتماما أكبر فى الطبعة الإنجليزية لما اعتبره آفاقا سياسية بدت أوسع فى ديسمبر ١٩٩٢ وكانت هى الأفضل منذ عقود عدة. ولم يرد فى

الطبعة العربية تقويمه هذا للوضع فى إسرائيل فى ذلك الوقت، إذ رأى فى الطبعة الإنجليزية أن حكومة رابين بدت راغبة فى مبادلة بعض الأرض على الأقل بالسلام وأن المتشددين الإسرائيليين صاروا أقل قدرة على التأثير لأن دعوتهم إلى مزيد من المستوطنات لم يعد لها مبرر فى ضوء التراجع الشديد فى الهجرة اليهودية.

وبرغم أنه يشير فى الطبعتين إلى تزايد المخاوف فى إسرائيل والغرب من تنامى الحركات الإسلامية فى العالم العربى فهو يتطرق فى الإنجليزية فقط إلى المدى الذى بلغته هذه المخاوف فى شأن الوضع فى مصر تحديدا.

ويشير إلى أن سفير احدى الدول الأوروبية كان تحدث عن أن حكومته مقتنعة بأن هناك خطرا أصوليا شديدا على مصر برغم أنه (السفير) أوضح لها أن هذا التقدير مبالغ.

كما يخص المؤلف الطبعة الإنجليزية بتحليل لوضع عرفات ساوى فى ذلك الوقت مشيرا إلى أن الزعيم الفلسطينى وجد نفسه فى حالة خوف فيما كانت هناك نجوم تبزغ بين أعضاء وفده فى محادثات واشنطن. ويضيف أن عرفات قضى معظم العام ١٩٩٣ فى تونس يتأمل الأحداث المأساوية التى حصلت فى العام السابق وأن أبوابا كثيرة ظلت مغلقة أمامه فى العالم العربى. وهكذا كان على عرفات - فى رأى هيكل - الاختيار من بين بديلين كلاهما صعب : إما أن يحافظ على قضية الاستقلال

الفلسطينى ويبقى خارج اللعبة على رأس حركة مفلسة أو أن يقبل ما لا يمكن قبوله ويقدم تنازلات دراماتيكية ويصير أميرا للسلام لدى وسائل الإعلام. وكان أن اختار عرفات البديل الأخير الذى جاءت قناة أوسلو السرية لتفتح له الباب.

وتتميز الطبعة العربية بأنها أكثر تفصيلا فى إيضاح الظروف التى نشأت فى ظلها قناة أوسلو فيما تحوى الإنجليزية تفاصيل أكثر فى المقابل فى شأن المحادثات التى جرت فى إطار هذه القناة.

وتوضح الطبعة العربية أن قناة أوسلو بدأت من دون تخطيط وبدا فى البداية أنها مجرد إضافة جديدة إلى عشرات القنوات المفتوحة سرا بين الفلسطينيين والإسرائيليين فى عواصم أوروبية وشرق أوسطية. وتعطى هذه الطبعة اهتماما أكبر لدور موناجول الملحقة الدبلوماسية الشابة فى سفارة النرويج لدى القاهرة فى التمهيد لقناة أوسلو باعتبارها كانت تشرف على تخصيص مبلغ ٦ بلايين دولار ضمن معونة قدمتها حكومة بلدها لدراسة الأوضاع الاجتماعية فى قطاع غزة. وتروى هذه الطبعة دون الأخرى أن موناجول التقت فى مجال عملها باحثا نرويجيا هو تيرجى لارسن جاء إلى القاهرة قاصدا قطاع غزة تحت رعاية وكالة الـ "أونروا" وأن قصة غرام نشأت بينهما وساعد عليها اهتمامهما بالعمل المشترك بالقطاع ثم تزوجا.

وتضيف الطبعة العربية أن لارسن توجه إلى إسرائيل فى مايو ١٩٩٢ خلال حملة انتخابات

الكنيست والتقى شخصيات عدة كان من بينهم يوسى بيلين أحد المقربين إلى شمعون بيريز وكان يتعاون معه فى أنشطة أكاديمية وقتها. وفى لقاء بين لارسن وبيلين تحدث الأخير عن لقاءات سابقة عقدها مع فيصل الحسينى فى إطار اهتمامات أكاديمية مشتركة ولم يجد لديه أفكارا جيدة تساعد على معالجة الأوضاع المتردية فى قطاع غزة. وأشار بيلين إلى صعوبات تحول دون تكرار الاتصال مع الحسينى لأن تسرب أنباء عن مثل هذا الاتصال يسبب حرجا ومشكلات لكليهما. ويضيف المؤلف "وهنا بطريقة عابرة تساءل لارسن : لماذا لا تكون اجتماعاتهما فى مكان آخر بعيد عن وسائل الإعلام فى النرويج مثلا". ويوضح المؤلف أن هذا الحديث لم تترتب عليه أية نتيجة فى حينه. ولكن بعد أيام أعيدت مونا جول إلى ديوان وزارة الخارجية فى أوسلو وأصبح بيلين نائبا لوزير الخارجية بعد فوز حزب العمل فى الانتخابات الإسرائيلية.

هذه القصة المعروفة للقارىء الأجنبى أكثر من العربى جرى اختصارها فى الطبعة الإنجليزية لتقتصر على أنه عشية انتخابات ١٩٩٢ الإسرائيلية التقى لارسن وبيلين للبحث فى موضوع قطاع غزة فى إطار أكاديمى. ولكن تضيف هذه الطبعة أن بيلين أوضح أن حزب العمل يبحث عن وسيلة لتجاوز جمود محادثات واشنطن إذا فاز فى الانتخابات وأن لارسن اقترح ترتيب لقاء بين بيلين والحسينى. وهنا تختلف الطبعتان إذ تشير الإنجليزية إلى أن لقاء بينهما تم ترتيبه بالفعل عشية الانتخابات فيما تعذر عقد لقاء

ثان عقب الانتخابات وتولى بيلين منصبه نائبا لوزير الخارجية. وتقتصر هذه الطبعة فى رواية قصة العلاقة بين لارسن وجول على إشارة إلى أنهما زوجان (من دون إيضاح كيف تم زواجهما) وأنهما كانا أمضيا ثلاث سنوات فى مصر حين كانت جول تعمل فى سفارة بلادها لدى القاهرة قبل أن يتم نقلها إلى مكتب وزير الخارجية النرويجى تورنالد ستولتنبرج. وهنا تضيف الطبعة الإنجليزية أن ستولتنبرج كان معروفا باهتمامه بالقضية الفلسطينية منذ فترة طويلة برغم أن دوره ظل محدودا حتى عام ١٩٩١ إذ طغى عليه دور وزير خارجية السويد ستين اندرسون.

وتتفق الطبعتان فى أن قناة أوسلو السرية بدأت تتبلور فى أوائل ديسمبر عام ١٩٩٢ خلال اجتماع عقدته لجنة للتعاون الاقتصادى الإقليمى فى إطار المفاوضات المتعددة الأطراف فى لندن. وتختلف الطبعتان فى بعض تفاصيل الاتصالات التى جرت وأسفرت عن اختيار أحمد قريع (أبو علاء) منسق الوفد الفلسطينى فى هذا الاجتماع لتمثيل منظمة التحرير فى محادثات أوسلو. وتوضح الطبعة العربية أن بيلين ذهب إلى الاجتماع حيث التقى لارسن الذى كان فى لندن للبحث عن تمويل لمواصلة بحثه الأكاديمى عن أوضاع قطاع غزة. وتضيف أنهما استأنفا حديثهما السابق الذى جرى فى تل أبيب واقترح لارسن على بيلين أن يلتقى فيصل الحسينى الذى كان وصل إلى لندن مع حنان عشرواى فى طريقهما الى واشنطن للمشاركة فى جولة أخرى فى المفاوضات. ولما تعذر ترتيب اللقاء اقترح لارسن أن

يكلف بيلين أحد مساعديه وهو يائير هيرشفيلد إجراء اتصال مع أحد ممثلى منظمة التحرير ثم تشاور مع حنان عشرواى التى رشحت أحمد قريع (أبو علاء).

هذا الدور الذى قامت به عشراوى لا يرد فى الطبعة الإنجليزية التى تشير إلى أن لارسن تعرف إلى أبو علاء لمناقشة موضوع يتعلق باللاجئين الفلسطينيين. وأظهرت المناقشة بينهما قلقا مشتركا من تزايد نفوذ حركة "حماس". وتضيف هذه الطبعة أن لارسن شعر بأنه عثر على الرجل الذى تتوافر لديه المؤهلات الملائمة لفتح قناة سرية مع الإسرائيليين وأهمها الذكاء ومعقولية الآراء فضلا عن أنه لم يكن معروفا على نطاق واسع. كما ورد فى هذه الطبعة بخلاف العربية أن لارسن رتب لقاء بين هيرشفيلد وأبو علاء فى الفندق الذى كان ينزل فيه الأول فى بيكاديللى وأن الأخير أبلغ أبو مازن باعتباره المسؤول فى منظمة التحرير عن الاتصالات مع الإسرائيليين.

ولكن فيما ورد فى الطبعة الإنجليزية أن أبو مازن وأبو علاء لم يكن لديهما علم بأن لارسن كان على اتصال مع بيلين وأن الأخير وافق على أن يجرى هيرشفيلد وزميله رون بونداك اتصالات سرية مع أبو علاء، جاء فى الطبعة العربية أن لارسن توجه إلى تونس وأبلغ أبو مازن أن هيرشفيلد هو رجل بيلين الذى هو بدوره رجل بيريز.

كما تختلف الطبعتان فى تاريخ إبلاغ مصر عن قناة أوسلو السرية. فالطبعة العربية تؤكد أن عرفات

أبلغ مبارك خلال محادثات جرت بينهما فى القاهرة فى يناير ١٩٩٢ فيما تشير الطبعة الإنجليزية إلى أن هذا الإبلاغ تأخر إلى أبريل من العام نفسه. فقد ورد فى الطبعة العربية أن عرفات وأبو مازن وجدا من الضرورى أن تكون مصر على علم بعملية أوسلو لأن الإسرائيليين قد يقومون بتسريب الأمر إلى القاهرة ثم إن معرفة مصر المبكرة تمثل حماية إضافية ضد أية حملات قد تقوم بها أطراف عربية إذا تسرب شىء. وتشير هذه الطبعة (العربية) الى أن عرفات كان طلب نصف ساعة على انفراد مع مبارك خلال محادثاتهما فى القاهرة فى يناير وأن هذا الطلب أحدث حساسية لدى أعضاء الوفد المصرى. ولكن بعد أن عرف مبارك من عرفات استدعى عمرو موسى وأسامة الباز ليشاركا فى تقويم موضوع أوسلو. وكان هناك خلاف فى الرأى حسب العربية أيضا إذ تشكك الرئيس ووزير خارجيته فى جدية الأمر فيما كان رأى مستشار الرئيس هو أن هناك احتمال فرصة.

أما الرواية الواردة فى الإنجليزية عن محادثات مبارك - عرفات فى ٧ يناير فهى تدل على أن الزعيم الفلسطينى وأبو مازن الذى حضر معه المحادثات كانا حذرين برغم أن الرئيس المصرى سأل أبو مازن باعتباره المسؤول عن الاتصالات مع المصريين عن الجديد فى "جبهته" فرد بأنه "لا شىء مهما. ولكن هناك بعض أفكار جديدة" وإن كان ألمح من بعيد إلى القناة الجديدة بقوله أن "الإسرائيليين اتصلوا مع واحد من جماعتنا". وتضيف هذه الطبعة (الإنجليزية) فى موضع آخر أن مبارك لم يعرف شيئا عن قناة

أوسلو حتى فى لقائه التالى مع عرفات فى ٢١ فبراير وأن الرئيس المصرى كان قلقا من الجمود الذى كان يكتنف جهود السلام وأنه أبلغ عرفات قراره إيفاد أسامة الباز فى الليلة نفسها إلى إسرائيل ليتحدث مع رابين.

ولكن مضمون ما ورد فى الطبعة الإنجليزية باعتباره حصل فى المحادثات يوم ٢١ فبراير جاء فى الطبعة العربية مع اختلاف فى بعض التفاصيل على أنه كان فى محادثات جرت فى يوم ٢١ أبريل ١٩٩٣ , وفيما يتعلق بمهمة الباز فى إسرائيل ورد فى الطبعة العربية أن من أهدافها "جس النبض فى شأن ما إذا كان رابين لديه علم عن قناة أوسلو أو أنها واحدة من تجارب ومغامرات بيريز". وتضيف هذه الطبعة (العربية) أن مبارك أوفد الباز برغم أنه لم يكن مقتنعا حتى ذلك الوقت بقناة أوسلو وكان تقديره هو أن مفاوضات واشنطن حيث يوجد الأمريكيون أهم من قناة أوسلو حيث لا يوجد غير النرويج.

وقد وردت هذه الرواية فى الطبعة العربية باعتبار أنها حددت تاريخ إبلاغ مبارك عن قناة أوسلو فى ٧ يناير فى حين توضح الطبعة الأخرى أن عرفات لم يبلغه عن هذه القناة إلا بعد الاجتماع الثالث بين الفلسطينيين والإسرائيليين فى أوسلو فى مارس ١٩٩٣ . وتضيف هذه الطبعة (الإنجليزية) أن عرفات وأبو مازن شعرا فى ذلك الوقت (مارس ١٩٩٣) بضرورة إبلاغ القاهرة وأن عرفات بعث برسالة من تونس إلى سفيره لدى مصر طلب وضع السلطات المصرية فى الصورة. ولكن رد السفير حسب الطبعة

نفسها بأنه لا يمكن التعاطى مع مصر بهذا الأسلوب واقترح أن يقوم عرفات شخصيا بإبلاغ مبارك. وعندئذ تضيف الإنجليزية ذهب عرفات وأبو مازن إلى القاهرة. وهنا تروى هذه الطبعة قصة المحادثات التى وردت فى الطبعة العربية على أنها كانت فى ٧ يناير باعتبار أنها حصلت فى أول أبريل.

أما ما ورد فى الطبعة العربية عن محادثات أول أبريل فهو أن عرفات أطلع مبارك خلالها على تفاصيل التقدم الذى تم إحرازه فى أوسلو. والواقعة الوحيدة التى تتفق الطبعتان على أنها حصلت خلال محادثات أول أبريل هى أن عرفات طرح أفكاره عن حكم ذاتى فلسطينى فى غزة وأريحا مستعينا بخريطة (فى الطبعة الإنجليزية) ومسلما الخريطة إلى مبارك فى نهاية الجلسة (حسب الطبعة العربية).

وفضلا عن الاختلاف بين الطبعتين فى تحديد التاريخ الذى أبلغ فيه عرفات القيادة المصرية عن قناة أوسلو تشير الطبعة العربية إلى أن عرفات نفسه لم يعرف عن هذه القناة إلا عقب أول اجتماع حصل فى عاصمة النرويج فى ٢٠ يناير وهو ما ورد فى الإنجليزية أيضا.

ومعنى ذلك أنه كان مستحيلا أن يبلغ عرفات مبارك فى ٧ يناير عن أمر لم يكن هو نفسه يعرفه حتى ذلك الوقت.

فقد ورد فى الطبعتين أنه عندما تم الاتفاق على عقد أول جلسة فى أوسلو رأى أبو مازن عدم التعجل فى إبلاغ عرفات قبل معرفة مدى جدية الإسرائيليين.

ولكن عندما عرض الوفد الإسرائيلى فى أول اجتماع فى أوسلو أن تأخذ منظمة التحرير قطاع غزة وجد أبو مازن حسب الطبعة العربية أنه أصبح لزاما عليه اطلاع عرفات على الأمر. وورد فى الطبعة الإنجليزية أن أبو مازن شعر عقب أول اجتماع بأن عملية أوسلو واعدة بأكثر مما توقع وقرر إبلاغ عرفات.

ومثلما ورد اختلاف بين الطبعتين فى شأن تاريخ ابلاغ مصر عن قناة أوسلو هناك تباين بينهما أيضا بخصوص كيفية إبلاغ واشنطن. فتشير الطبعة العربية إلى أنه خلال الجلسة الثانية فى أوسلو (بدأت فى ١٢ فبراير ١٩٩٣) حسب الإنجليزية لأن العربية لا تذكر تواريخ هذه الجلسات) أشار هيرشفيلد إلى أنه تحدث فى أمر محادثات أوسلو مع مسؤول أمريكى هو دان كيرتز. ويوضح المؤلف أن هذه كانت إشارة إلى أن الأمريكيين على علم. ولكن تقول الطبعة الإنجليزية أن وزير خارجية النرويج ستولتنبرج الذى ترك منصبه فى ٢٨ فبراير ليعمل كوسيط للأمم المتحدة فى يوغوسلافيا السابقة أبلغ كريستوفر عن قناة أوسلو قبل أن يتولى منصبه الجديد.

# الفصل التاسع

# خفايا أوسلو وأسرارها

عندما بدأ الترتيب فى ديسمبر ١٩٩٢ لفتح قناة اتصال سرية بين إسرائيليين وفلسطينيين يمثلون منظمة التحرير كانت هناك قوات أخرى عدة. وتنفرد الطبعة الإنجليزية بأن تسعا على الأقل من هذه القنوات كانت تمر عبر القاهرة. وهذه معلومات لم يكن يعرفها إلا قلة من المصريين والفلسطينيين، الأمر الذى يؤكد مدى قدرة الأستاذ هيكل على الوصول الى أسرار سياسية تحت أى ظرف.

ويكشف الأستاذ هيكل فى الطبعة الإنجليزية أيضا عن أن ديفيد ليفى كان أحد الذين شاركوا فى الاتصالات عبر إحدى هذه القنوات. ولكن كان الانطباع السائد هو أن الإسرائيليين استخدموا تلك الاتصالات كوسيلة لمعرفة كيف تفكر القيادة الفلسطينية من دون أن تكون لديهم نية التفاوض بجدية.

ويضيف المؤلف سببا آخر لفشل تلك الاتصالات وهو أن القاهرة قصرت دورها على جمع الطرفين معا من دون أن تتدخل بينهما فيما كان عرفات فى حاجة إلى من يبادر باقتراح تنازلات فلسطينية دراماتيكية بحيث يمكنه الادعاء بأنه تم حمله على قبول حل مفروض.

وربما كان هذا التدخل الذى قام به الوسيط

النرويجى بدرجة ما هو ما أتاح النجاح الذى تحقق فى أوسلو. ويبدو فى الطبعة العربية أكثر من الإنجليزية أن هذا التدخل بدأ منذ أول جلسة. فهى تشير إلى أن الوسيط النرويجى لارسن هو الذى بدأ بطرح موضوع غزة كمحور للمحادثات وأن الإسرائيليين تلقفوه. وحسب هذه الطبعة (العربية) كان تعليق أبو علاء : "انسحبوا منها اذا كانت تسبب لكم صداعا ولكنها تحتاج إلى مشروع مارشال".

فسأل هيرشفيلد : "ولكن كيف سيكون المخرج من غزة ولمن يتعين علينا أن نعطى مفتاحها ". وكانت إجابة أبو علاء هى : "هذا أمر يمكن الاتفاق عليه ويمكن اعطاء المفتاح إلى الأمم المتحدة أو إلى جهة دولية ما". فقال هيرشفيلد : "إن ما نتوقعه هو أن نعطى المفتاح لكم أنتم".

ولكن يفهم من الطبعة الإنجليزية أن الوفد الفلسطينى وليس غيره هو الذى طرح موضوع غزة من خلال ما ورد فيها عن أنه اقترح إعلان مبادئ حول اتفاق مرحلى يقوم على أن الانسحاب الإسرائيلى يجب أن يبدأ من غزة. ويرى المؤلف فى هذه الطبعة أن الوفد الفلسطينى طرح أفكارا تختلف جذريا عن تلك التى عبر عنها الوفد الآخر الرسمى فى واشنطن. ويضيف أن وفد أوسلو كان يعتقد فى أن مفاوضات واشنطن أظهرت استحالة التوصل إلى تسوية شاملة وأن اتفاقا مرحليا فقط هو ما يمكن التوصل إليه. ويصف هذا الطرح بأنه كان مفارقا لأحد مطالب منظمة التحرير الرئيسية حتى ذلك الوقت.

غير أن ما ورد فى الطبعة العربية يدل على أن هذا الطرح الفلسطينى كان فى الاجتماع الثانى فى أوسلو

وليس الاجتماع الأول. وورد هذا الطرح حسب الطبعة العربية فى صياغة تفيد أن المفاوضين الفلسطينيين فى أوسلو اتفقوا على ألا يكرروا الخطأ الذى وقع فيه وفد واشنطن. فكان هذا الوفد فى رأيهم حسب الطبعة نفسها أخطأ عندما بدأ فى مناقشة القضايا الرئيسية التى تستحيل فيها الحلول الوسط بسرعة مثل حق تقرير المصير والمستوطنات ومستقبل القدس. ولذلك اتجهوا فى محاولتهم الجديدة إلى منطق البدء بنقطة عملية يمكن خلق أمر واقع فيها.

وتضيف الطبعة الإنجليزية دون العربية أن الوفد الفلسطينى حمل معه إلى الاجتماع الثانى فى أوسلو اقتراحات مفصلة فى شأن الحكم الذاتى فى المرحلة الانتقالية ومفاوضات الوضع النهائى وقضية القدس فيما حمل هيرشفيلد مسودة إعلان مبادئ يقوم على انسحاب إسرائيل من غزة ونقل تدريجى للصلاحيات وبناء مؤسسات الحكم الذاتى وتعاون اقتصادى.

وتختلف الطبعتان فى شأن تأثير القانون الإسرائيلى الذى كان يحظر أى اتصالات مع منظمة التحرير على محادثات أوسلو. فيظهر من الطبعة العربية أن هذا التأثير استمر حتى نهاية مارس ١٩٩٣ على الأقل. فهى تشير إلى أن بيريز الذى لم يكن حصل بعد على موافقة حاسمة من رابين على عملية أوسلو حاول أن يطمئن الفلسطينيين على أن الحكومة الإسرائيلية موجودة فى هذه العملية "خصوصا وأن هيرشفيلد نفسه كان قد بدأ يبدى مخاوف من أنه يجد نفسه حتى الآن وحيدا أمام الفلسطينيين. وإذا تعرضت المحاولة لنكسة وتسرب أمرها سيواجه مأزقا أبسط ما فيه أن يجد نفسه موضع مساءلة قضائية بمقتضى القانون الذى يحرم على الإسرائيليين الاتصال مع منظمة التحرير".

ولكن ورد فى الطبعة الإنجليزية أن هذا القانون تم الغاؤه فى ١٩ يناير أى فى اليوم السابق على أول اجتماع فى أوسلو. وهو الاجتماع الذى توضح هذه الطبعة وحدها أن الوفد الفلسطينى الذى شارك فيه ضم إلى جانب أبو علاء كلا من ماهر الكرد الذى وصف بأنه "اقتصادى يتحدث لغة انجليزية ممتازة" وحسن عصفور (مساعد أبو مازن). كما تشير الطبعة الإنجليزية فى الاتجاه نفسه إلى أنه عندما نشرت جريدة "يديعوت أحرنوت" فى صفحتها الأولى مقابلة أجرتها مع عرفات فى نوفمبر ١٩٩٢ كانت هذه إشارة إلى أن القانون الإسرائيلى المذكور لم يعد نافذا.

وأيا كان الأمر ففى الوقت الذى كانت محادثات أوسلو تحرز تقدما ظلت مفاوضات واشنطن تراوح فى مكانها. وعندما تم رفع مستوى التمثيل الإسرائيلى فى الاجتماع الخامس فى أوسلو مايو ١٩٩٣ بحضور يورى سافير مدير عام وزارة الخارجية (تصفه الطبعة العربية بأنه كان مساعدا لبيريز فى هذه الوزارة) كانت الجولة التاسعة فى واشنطن متعثرة. ولكن يختلف تفسير هذا التعثر فى كل من الطبعتين. فقد أبرزت الطبعة العربية تعمد عرفات إفشال مفاوضات واشنطن. وتشير إلى أنه "طوال شهر مايو كانت تركيز عرفات كثيفا على قناة أوسلو وكانت حواسه كلها تجعله حذرا ومتطيرا من مفاوضات واشنطن. وبدأ يطلب من الوفد الفلسطينى هناك أن يتخذ مواقف متصلبة. وكان هدفه هو أن يسد الطريق على مفاوضات واشنطن لكى تظهر قناة أوسلو باعتبارها الخط الموصل الوحيد". ولكن الطبعة الإنجليزية لا يبرز فيها تعمد عرفات إفشال مفاوضات واشنطن وإنما تشير إلى أن الجولة التاسعة فى هذه المفاوضات كانت مخيبة لآمال الوفدين لأن الجانب

الفلسطينى لم يقبل ما اعتبره الإسرائيلى تنازلات مهمة قدمها وبخاصة قبول أن تكون السلطة الفلسطينية الانتقالية لها طبيعة برلمانية بحيث لا تقتصر على مجرد كيان إدارى وطرح أفكار حول تقاسم موارد المياه. وتوضح هذه الطبعة (الإنجليزية) أن الوفد الفلسطينى اعتبر ما قدمه الإسرائيليون ضئيلا بالقياس إلى المشكلة التى كانت قائمة.

وتضيف أن هذا هو ما جعل بيريز ينصرف تماما عن مفاوضات واشنطن ويركز على المحادثات التى كانت واعدة فى أوسلو. وينسجم هذا التقدير لموقف بيريز مع ما ورد فى الطبعة العربية التى تبدو أكثر وضوحا فى إبراز أن بيريز سعى مثله مثل عرفات إلى إفشال مفاوضات واشنطن. وتصف الطبعة العربية بيريز بأنه كان هو المحرض الرئيسى ضد هذه المفاوضات. وتفسر ذلك بأن "بيريز صار مقتنعا بضرورة التفاوض مع عرفات شخصيا والحصول على توقيعه هو وليس غيره على أى اتفاق يمكن الوصول إليه". كما تضيف الطبعة العربية أن أبو علاء بدوره كان مقتنعا بضرورة افشال مفاوضات واشنطن.

ولكن تنفرد الطبعة الإنجليزية بتوضيح كيف تم الاتفاق فى أوسلو على إرجاء قضية القدس إلى مفاوضات الوضع النهائى. ولكنها تحوى روايتين بينهما بعض التباين. إذ تدل أحدهما على أنه كان هناك اتفاق مبكر على إرجاء قضية القدس منذ اجتماع أوسلو الثانى الذى تم التوصل فيه إلى مسودة أولية لإعلان مبادئ مشترك عبر المزج بين الأفكار التى طرحها الطرفان. وكان أحد عناصر المسودة حسب هذه الرواية هو أن مستقبل القدس سيتقرر فى مفاوضات الوضع

النهائى بعد فترة من الحكم الذاتى. وتضيف هذه الرواية أن قبول هيرشفيلد وزميله فى أوسلو هذا المفهوم كان يعنى ابتعادهما عن الموقف التقليدى لحزب العمل الذى لم يكن راغبا فى التعاطى مع موضوع القدس أصلا. أما الرواية الثانية الواردة فى الإنجليزية أيضا فتدل على أن هذا الموضوع ظل خلافيا حتى اجتماع أوسلو الخامس عندما طرح سافير أرجاء البحث فيه على أساس أن الهدف هو التوصل إلى اتفاق مرحلى فقط.

وتضيف هذه الرواية أن أبو العلاء أجرى مشاورات مع أبو مازن الذى وافق على المضى فى المحادثات على هذا الأساس وأن هذا التنازل الفلسطينى الكبير جعل النقاط الباقية مجرد تفاصيل برغم أن بعضها كان ينطوى على تعقيدات.

وهنا تنفرد الطبعة الإنجليزية بأن الفارق بين ما طرحه الفلسطينيون فى أوسلوو وبين موقفهم فى واشنطن كان هائلا فى ذلك الوقت. وتشير إلى أن أحد الوفدين كان مستعدا لإعطاء الإسرائيليين كل ما أرادوه تقريبا فيما كان الأخر متمسكا بالمطالب الأساسية لمنظمة التحرير.

وتختلف الطبعتان فى بعض التفاصيل الخاصة بدور مصر فى إقناع رابين بالتعاطى مع منظمة التحرير مباشرة. فقد ورد فى الطبعة العربية أنه "من المفارقات أن بيريز طلب مساعدة مصر" فى هذا الشأن فيما أشارت الإنجليزية إلى أن مصر علمت بأن رابين متردد فى قبول الاتفاق الذى تم التوصل إليه فى أوسلو. وفيما جاء فى العربية أن مبعوثين مصريين من بينهم مصطفى خليل وأسامة الباز توجهوا فى زيارات خاطفة إلى

إسـرائيل لاقناع رابين ورد فى الإنجليـزية أن خليل كـان على وشك القـيـام بزيارة إلى إسـرائيل لتـسلم درجـة فخـرية من معهد وايزمـان وأن مبارك كلفه محاولة اقناع رابين بأنه لا بديل عن التعاطى مع منظمة التحرير.

وهنا يوضح الأستـاذ هيكل فى الطبـعتين أن تردد رابين كـان راجـعـا فى جـانب منه إلى أنه كـان يفـضل التـوصل إلى اتفـاق مع سـورية أولا برغم أن الطبـعـة العربية كانت أشارت فى موضوع سابق إلى أن رابين بدأ عـقب فـوزه فى الانتـخـابات يراجع مـوقـفـه الرافض التعاطى مع منظمـة التحـرير. وورد فى ذلك الموضـوع إشـارة واضـحـة إلى أن رابـين جـال فـى فكره أنه لو مـد اصبعا واحدا وليس يدا كاملة إلى منظمة التحرير لأخذ الورقة الفلسطينيـة ليس من التيار الإسـلامى فقط ولكن من سورية أيضا.

ولكن مـا ورد فـى الإنجليـزية عن مـحـاولة مـصـطفى خليل مع رابين يخـتـلف عن هـذا المعنى. فـتـشـيـر هـذه الطبعة إلى أن خليل وجد رابين مهتما أكثر بسورية وأنه طلب مـسـاعـدة مـصـر فى ترتيب قـمة بينه وبين الأسـد ورفض قبول تقدير خليل أن هذا أمر مستحيل. وتضيف هذه الطبعة أن رابين كان يعتقد أنه إذا توصل إلى اتفاق مع سورية ستفقد منظمة التحرير أية أهمية فيما كان رأى خليل هـو أنه إذا تـوصلت إسـرائيل إلى اتفـاق مع منظمـة التـحـرير لن يكون فـى مـقـدور سـورية أن تلعب الورقة الفلسطينية.

كما أشارت الطبعة العربية نفسها بخلاف ما ورد فى موضوع سـابق فـيـهـا إلى أن إحـدى الحجج التى قـدمـهـا المصـريون إلى رابين هـى أن "انتظـار سـورية هو تمسك بأوهـام ليـست قـابلة للتـحـقـيق على الأقل بالإيقـاع الذى

يتصوره رابين وأن التوقيع مع المنظمة على اتفاق يخص الشأن الفلسطيني سوف يجعل سورية بغير خيار إلا الالتحاق بالمسيرة السلمية".

وتحوى الطبعة الإنجليزية تفاصيل كثيرة لا ترد فى الطبعة العربية عن ما ورد فى اجتماعات أوسلو والأزمات التى تعرضت لها المحادثات. اذ يميل المؤلف فى الطبعة العربية إلى اختصار ما حصل فى أوسلو ربما لأن الكثير من تفاصيله وردت فى كتابين أصدرهما أبو مازن وممدوح نوفل بالعربية. وعندما تعرض الطبعة الإنجليزية لأهم الأزمات التى وقعت فى أوسلو تشدد على أن عرفات وبيريز كانا مصممين على التوصل إلى اتفاق. ويكشف فى هذه الطبعة أيضا عن أنه قبل أن يتم حل كل الخلافات كان هناك برنامج لتدريب ١٢٠٠ من المقاتلين الفلسطينيين للعمل كرجال شرطة فى غزة وأريحا. وكان هؤلاء ينتمون إلى قوات "بدر" وقوات "عين جالوت" الفلسطينية التى كانت موجودة فى الأردن ومصر.

وبرغم أن عدم تطرق الطبعة العربية إلى خلافات مهمة حصلت فى أوسلو لا يؤثر على الرواية الإجمالية الواردة فى هذه الطبعة إلا أن غياب هذه الخلافات يعطى انطباعا بأن المحادثات كانت سهلة بخلاف الطبعة الإنجليزية التى تتضمن تلك الخلافات.

ومن أهمها الخلاف الذى حصل فى يوليو ١٩٩٢ عندما طرح كل من الطرفين مطالب جديدة. فقد طلب رابين ضمانات محددة لأمن المستوطنات وآمان الإسرائيليين الذين سوف ينتقلون عبر مناطق ستصبح تحت سيطرة السلطة الفلسطينية. كما طلب عرفات إشارة صريحة وليست ضمنية إلى منظمة التحرير فى

نص الاتفاق وتوفير طريق آمن يربط بين منطقتى الحكم الذاتى فى غزة وأريحا.

وأدى رفض الإسرائيليين مطلب عرفات إلى وقف المحادثات ولكن نجحت الوساطة النرويجية فى استئنافها فى الوقت الذى بدأت عملية عسكرية إسرائيلية عنيفة فى جنوب لبنان "عملية تصفية الحساب" فى آخر يوليو. وتوضح هذه الطبعة (الإنجليزية) أن العملية الإسرائيلية لم تؤثر على مناخ المحادثات التى كانت جارية فى جيفانكار شمال أوسلو. وفى ذلك الوقت كانت المحادثات حسب الطبعة الإنجليزية دخلت مرحلتها الأخيرة وأصبح الاتفاق وشيكا خلال الاجتماع الذى عقد فى ساربوسبورج (قرب أوسلو) فى ١٢ أغسطس. وتنفرد الطبعة الإنجليزية بأن السفير الفلسطينى لدى القاهرة تلقى فى ذلك الوقت تعليمات لإجراء اتصالات مع شخصيات مصرية معينة معروفة بالتزامها تجاه القضية الفلسطينية والتلميح إليها بأن شيئا ما يحصل.

وكان الأستاذ هيكل أحد هؤلاء الذين جرى الاتصال معهم. وهو يفسر ذلك بأنه كان يهدف إلى الحد من ظهور ردات فعل سلبية على الاتفاق عندما يتم الإعلان عنه.

وتوضح الطبعتان كيف تم حل الخلافات التى ظلت باقية عقب اجتماع ١٢ أغسطس فى الوقت الذى كان بيريز توجه إلى ستوكهولم فى زيارة لم تكن لها علاقة بموضوع المحادثات. ولكنه التقى هناك ووزير خارجية النرويج هولست وكان معه الوسيط النرويجى الأساسى لارسن. وتم الاتفاق على إجراء اتصال هاتفى مع تونس للبحث فى الخلافات الباقية.

ولكن تختلف الطبعتان فى بعض تفاصيل تلك المفاوضات التى جرت على الهاتف.

فقد ورد فى العربية أن هولست اتصل بعرفات وأبلغه أن بيريز جالس أمامه ويرغب فى تسوية المشاكل المعلقة على الهاتف فى هذه الليلة. وتضيف أنهما ظلا على الهاتف لمدة سبع ساعات. وكان هولست يتشاور مع بيريز فى كل جملة وفى كل كلمة. وكان عرفات على الناحية الأخرى من الخط وأمامه أبو مازن يتشاور معه بدوره فى كل جملة وكلمة. وفيما لم يرد فى الطبعة العربية دور أبو علاء، برغم أنها أشارت إلى أنه كان فى تونس لكى يعرض على القيادة الفلسطينية تفاصيل آخر اجتماع فى أوسلو، جاء فى الإنجليزية أن أبو علاء قام بدور رئيسى خلال الاتصال الهاتفى بين ستوكهولم وتونس. فحسب هذه الطبعة (الإنجليزية) رأى بيريز إمكان تسوية الخلافات الباقية مع عرفات على الهاتف وأنه استخدم لارسن وسيطا. وتوضح أن لارسن كان ينقل أفكار الإسرائيليين عبر الهاتف إلى أبو علاء الذى كان يناقشها مع عرفات وينقل إجابات فورية إلى لارسن.

وفيما ورد فى الطبعة العربية أن هذه المكالمة الهاتفية انتهت فى فجر يوم ١٨ أغسطس جاء فى الإنجليزية أنها انتهت فى فجر يوم ١٩ أغسطس. وبانتهائها حسب هذه الطبعة كان الطرفان توصلا إلى تسوية كل الأمور فيما عدا عدد قليل منها كان فى حاجة إلى ترتيب اجتماع آخر. ولكن يفهم من الطبعة العربية أن هذه الأمور التى ظلت باقية، وكان أهمها صيغة الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير، كانت ضمن ما تم الاتفاق عليه فى المكالمة الهاتفية إذ

تشير هذه الطبعة إلى أنه بانتهاء المكالمة أصبحت هناك مجموعة أوراق حاضرة للتوقيع تتضمن إعلان مبادئ وصيغة اعتراف متبادل.

وتبدو الطبعة الإنجليزية أكثر دقة لأن ما ورد بعد ذلك فيها بل وفى الطبعة العربية نفسها يؤكد أنه لم يتم التوصل إلى صفقة الاعتراف المتبادل إلا فى أوائل سبتمبر. ولكن تتفرد الإنجليزية بقصة التوصل إلى هذه الصفقة. فهى توضح أن بيريز التقى هولست فى باريس فى يومى ٣-٤ سبتمبر وأن الوزير النرويجى أجرى سلسلة مكالمات هاتفية مع عرفات فى باريس. وبعد أيام قليلة التقى وفدان يمثلان إسرائيل ومنظمة التحرير فى أحد فنادق باريس وتوصلا إلى صيغة الاعتراف المتبادل. ولا تروى الطبعة العربية التى حوت نصوص رسالتى الاعتراف المتبادل بين عرفات ورابين ورسالة الرئيس الفلسطينى الى هولست التى التزم فيها رفض العنف والإرهاب قصة التوصل الى هذه الرسائل. ولكن تتضمن هذه الطبعة (العربية) تحليلا يفيد أن عرفات اعترف ضمنيا بأن المقاومة الفلسطينية نوع من العنف والإرهاب فيما اكتفت الإنجليزية بإشارة إلى أنه (عرفات) تعهد بالتخلى عن النضال الفلسطينى.

وفى ذلك الوقت كان اتفاق أوسلو مثار اهتمام العالم كله برغم أن الفلسطينيين والإسرائيليين كانوا اتفقوا فى آخر اجتماع فى أوسلو على إبقائه سرا لفترة تصل إلى شهر يجرى خلالها التمهيد وتهيئة الأطراف المختلفة فى المنطقة والعالم بقبوله.

وتختلف الطبعتان فى شأن الكيفية التى تم بها الإعلان عن الاتفاق فورا. فتروى الطبعة العربية أن بيريز هو الذى بادر بالإعلان عندما ذهب لإبلاغ

كريستوفر الذى كان يقضى إجازة فى سان فرانسيسكو. وتفسر هذه الطبعة تعجل بيريز بأنه "انجرف سواء بحماسة أو بطموحات خفية راودته فإذا هو يقترح على كريستوفر أن يخرجا إلى الصحافيين ويعلنا نبأ توقيع اتفاق بين إسرائيل ومنظمة التحرير". وتضيف هذه الطبعة أن ما فعله بيريز كان على نقيض كل ترتيبات الاحتفاظ بالسر والتدرج فى الإعلان عنه على مدى شهر".

أما الطبعة الإنجليزية فهى لا تحمل بيريز مسؤولية "إفشاء السر" وإنما تروى أنه فيما كان بيريز وكريستوفر يتحدثان فى سان فرانسيسكو نشرت جريدة إسرائيلية أن اجتماعا عقد بين بيريز وقياديين فى منظمة التحرير فى النرويج. وتضيف أنه إزاء ذلك لم يكن ممكنا إخفاء الأمر فعقد بيريز مؤتمرا صحافيا ثم عاد إلى إسرائيل حيث كان رابين دعا إلى اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلى للإعلان عن اتفاق أوسلو.

وفيما ورد فى الطبعة العربية أن رابين استاء من مبادرة بيريز الإعلان عن الاتفاق واتهمه بالأنانية والسعى إلى الحصول على جائزة نوبل جاء فى الإنجليزية أن عرفات هو الذى قال لزملائه أن بيريز خطف المجد وأنه يسعى إلى هذه الجائزة.

وتتفق الطبعتان فى أن عرفات كان يفضل إخراج اتفاق أوسلو فى صورة أنه حل أمريكى قدمه كلينتون إلى إسرائيل ومنظمة التحرير. ولكن تفسر الإنجليزية ذلك بأن عرفات كان يأمل فى أن تساعده واشنطن فى استيعاب الانتقادات العربية للاتفاق.

وفيما ورد فى الطبعة العربية أن المعارضة

الإسرائيلية ممثلة فى ليكود لم تكن ضيقة الصدر بالاتفاق، أسهبت الطبعة الإنجليزية فى هجوم نتانياهو عليه ودعوته إلى إجراء استفتاء عام. كما أشارت إلى أن رابين وبيريز واجها تظاهرات غاضبة وأن الائتلاف الحكومى الإسرائيلى فقد تأييد حزب شاس الدينى مما قلص الغالبية التى كان يتمتع بها إلى فارق صوت واحد فى الكنيست وأن جنرالات الجيش ضغطوا للحصول على إجابات عن ما اعتبروه مسائل أمنية.

وتتعرض الطبعتان لموقف الملك حسين الذى فوجىء بالتوصل إلى الاتفاق برغم أنه كان يعرف عن الاتصالات التى كانت جارية فى أوسلو من مصادره وإن لم يعلق عليها أهمية كبيرة. ولكن توضح الطبعة الإنجليزية أن كريستوفر هو الذى أبلغه نبأ التوصل إلى الاتفاق. كما تنفرد بحديث جرى بينه وبين المؤلف بعد الاتفاق عبر فيه الملك عن دهشته من حجم التنازلات التى قدمها عرفات وأشار إلى ما اعتبره عالما كثير العجائب والأحداث الغريبة ثم وافق على قول هيكل تعليقا على كلامه : "أم أنها ديزنى لاند سياسية". وفيما ورد فى الطبعة العربية أن الرئيس الأسد استعمل الفاظا بالغة القسوة فى وصف من وقعوا الاتفاق ومن شاركوا فيه حددت الطبعة الإنجليزية طبيعة الوصف الذى أطلقه الأسد على عرفات.

وتركز الطبعة العربية على الجهود التى قام بها مبارك لترتيب لقاء بين الأسد وعرفات فيما تهتم الطبعة الإنجليزية بمحاولة كريستوفر تهدئة الأسد. وتشير إلى أن وزير الخارجية الأمريكى هاتف الرئيس السورى وطلب إليه إعادة النظر فى موقفه من الاتفاق وأوضح له أن واشنطن فوجئت به مثلها مثل دمشق ولكنها قررت منحه تأييدا كاملا.

ولكن تنفرد الطبعة العربية بالإشارة إلى الموقف الذى عبر عنه الأسد عندما التقى عرفات مستندة إلى نص المحضر السرى للجلسة. فقد اتهم الأسد عرفات بخيانة شمولية الحل العربى وقال له : "لقد أثرتم غبارا كثيرا حول سورية وادعيتم من قبل أنها توصلت الى اتفاق منفرد دونكم وأنتم تعرفون أن ذلك غير صحيح. ولكنكم كنتم تريدون أن تغطوا فعلتكم السوداء فى أوسلو".

كما يوجد قليل من الاختلاف بين الطبعتين فى شأن بعض ترتيبات الإعداد لحفلة توقيع الاتفاق فى البيت الأبيض فى يوم ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، فيبدو من الطبعة العربية أن رابين كان يفضل عدم حضور الحفلة فيما كان عرفات راغبا وأن كريستوفر توصل إلى حل وسط هو أنه يتم توقيع الاتفاق بواسطة بيريز وأبو مازن ويكون حضور رابين وعرفات رمزيا لإعطاء قوة دفع للاتفاق.

ولكن يظهر من الطبعة الإنجليزية أن رابين كان مترددا ما بين اعتبارات تتعلق بقلقه من أن تسلط الأضواء كلها على بيريز وأخرى ترتبط بتاريخه السياسى وأنه كان يميل فى البداية إلى عدم الحضور. وكان الموقف فى واشنطن حسب هذه الطبعة هو أنه إذا لم يحضر رابين فلا مجال لحضور عرفات. ولكن أعلنت قيادة منظمة التحرير من تونس فى ٩ سبتمبر أن عرفات سيحضر. وعندئذ اتصل كريستوفر برابين الذى قال أنه إذا حضر عرفات لن يكون أمامه خيار آخر غير الحضور.

وتبدو الطبعة العربية أكثر وضوحا فى شأن من الذى كتب الخطاب الذى ألقاه عرفات فى البيت

الأبيض. فهى توضح أن باسل عقل هو الذى كتبه. ويوصف عقل فى هذه الطبعة بأنه "سياسى ومفكر فلسطينى كفء ونشيط إلى جانب علاقات وثيقة تربطه بكثيرين من الساسة الفلسطينيين والعرب". أما الطبعة الإنجليزية فهى تروى أن مليونيرا (لا تذكر اسمه) ذهب إلى الفندق الذى نزل فيه وفد منظمة التحرير فى واشنطن يوم ١٢ سبتمبر ووجد عشرة أشخاص فى غرفة نوم عرفات وضعفهم فى غرفة الاستقبال فى جناح الزعيم الفلسطينى. وكان الجميع يتكلمون فى الوقت نفسه فيما الخطاب الذى كان مقررا أن يلقيه عرفات لم يكتب بعد. وكان لديه (المليونير) دقائق قليلة فقط لكى يحدد المفهوم الذى يتمحور عليه الخطاب والبحث عن الكلمات اللازمة للتعبير عنه. وكان المفهوم هو أن عرفات يجب أن يكون حريصا لأن رابين فى واشنطن هو مثل السمكة التى تسبح فى بحرها وأن الخطاب يجب أن يبتعد عن حديث المعاناة الفلسطينية وأن يستثمر عرفات الفرصة للدعوة إلى دعم مالى.

وحسب الطبعة العربية فإن عقل كان توجه إلى مقر إقامة عرفات بهدف الاطمئنان على مضمون الخطاب الذى سيلقيه وأنه تورط فى كتابته عندما عهد إليه الزعيم الفلسطينى بهذه المهمة باعتباره "رجلا مقيما فى الغرب وعارفا بأساليب السياسة والتفكير فيها" وأن عقل أسقط فى يده.

ولكن تتفق الطبعتان فى أن الخطاب لم يكن مرضيا لكثيرين من الفلسطينيين. وتضيف الإنجليزية أن كثيرين فى العالم العربى تمنوا لو كان الخطاب مماثلا لذلك الذى ألقاه رابين فى المناسبة نفسها. وتصف هذه الطبعة (الإنجليزية) خطاب عرفات بأنه بدا معتذرا عن

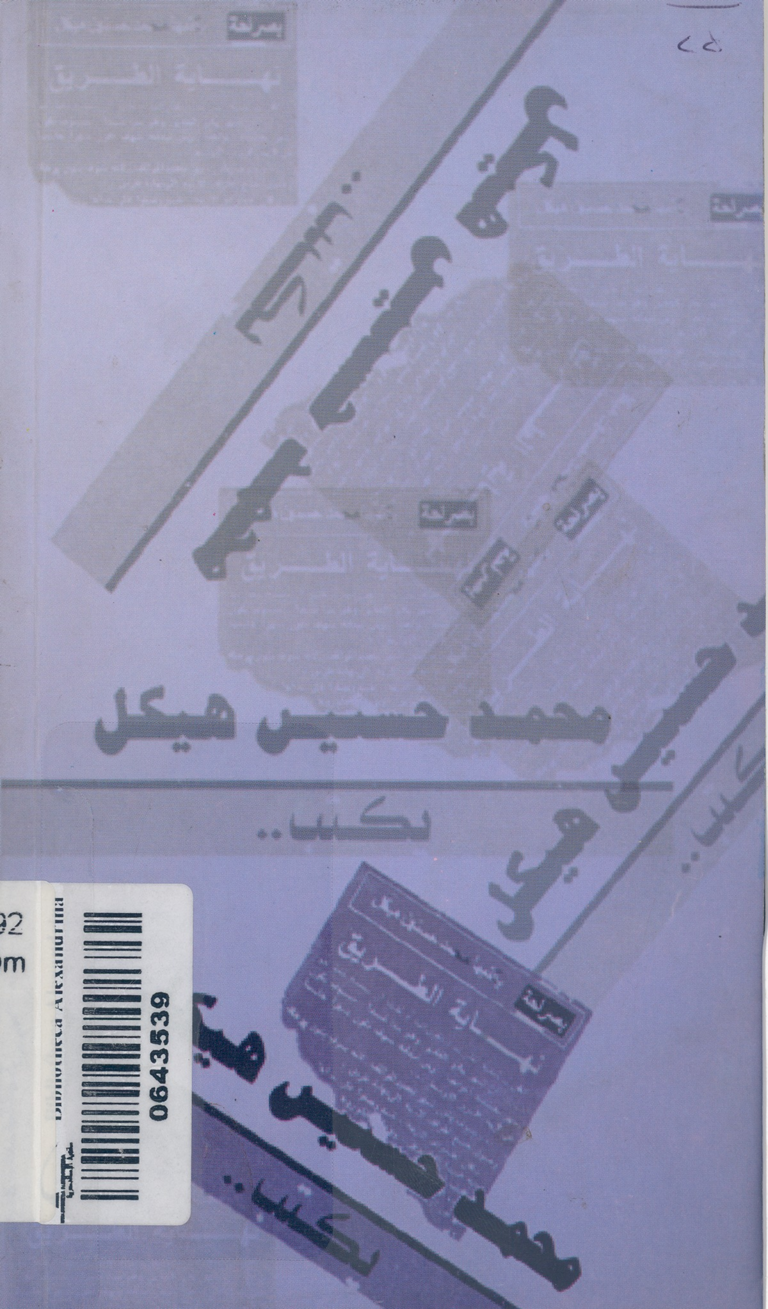
الماضى ومتوسلا من أجل المستقبل فيما تصفه الطبعة العربية بأنه كان جافا وتقريريا إلى أبعد حد بالمقارنة مع خطاب رابين الذى اعتبرته مؤثرا وحارا . وينقل الأستاذ هيكل فى الطبعة العربية عن أحد الذين انتقدوا خطاب عرفات قوله أن "الضحية شرحت مأساتها بأسلوب الموظفين الحكوميين أما الجلاد فقد تحدث عن نفسه بأسلوب الشهداء" .

وتتفرد الطبعة الإنجليزية بأن عرفات كان فى أفضل حالة معنوية فى ذلك الوقت إذ كان يقترب من أهم لحظة فى حياته السياسية. كان الرئيس الأمريكى على وشك أن يستقبله فى البيت الأبيض بعد أن مضت عليه سنوات طويلة كان دبلوماسيين أمريكيون صغار يرفضون خلالها التحدث إليه. ومع ذلك فهى تؤكد أن الهموم لم تفارقه بعد ذلك. ومثلما كان رأى المؤلف فى السادات عندما وضع كل شىء فى يد كيسنجر أنه كان متعبا ومرهقا. كذلك جاء رأيه فى عرفات عندما وافق على اتفاق أوسلو : رجل مهموم مثقل بالضغوط اعتبر أن العرض الهزيل الذى قدمه الإسرائيليون فى أوسلو مهربا له من الصعوبات التى كانت تواجهه بعد حرب الخليج الثانية.

كان هذا هو تقدير الأستاذ هيكل عندما كتب هذا الكتاب عام ١٩٩٥، حين كان اتفاق أوسلو يبدو مبشرا وكان عرفات منتعشا. وها قد صدق تقديره هذا، إذ سقط الاتفاق وأصبح عرفات أسير مقره فى رام الله مهجورا ممن كانوا يفرشون له البساط الأحمر، ومحاصرا من كل النواحى. ومهددا بالطرد أو القتل. لقد رأى هيكل ما لم يره كثيرون.

# المحتويات

| الموضوع | | الصفحة |
|---|---|---|



محمد حسين هيكل
يكتب..